منشورات اتحاد الادباء في العراق / ١٩٩٤

مدينة الحجر

زيد الشهيد

السلسلة القصصية (٢)

زيد الشـهيد

مدينـة الحجـر

مجموعة قصصية

صدرت طبعتها الأولى عن (إصدارات اتحاد الأدباء والكتاب في العراق) في بغداد عام 2004

المحتويـات

(1) مدينة الحجر

(2) نحن والزورق والعم كسّار

(3) القرار

(4) بقايا حلم

(5) الوبـاء

(6) تبّون والحصـان

(7) طيور سعد

(8) رحيق الهمس

(9) ذاكرة الأرض

(10) آه ، نجاة

مدينـة الحجر(*)

كتلالٍ لم تطأها قدمٌ من قبل تبدو المدينةُ من بعيد .. وفي المدى المنظور تتناثر أحجارٌ ترتفع عن الأرض المنبسطة بارتفاعاتٍ متفاوتة .. هناك بقايا بركٍ نضبُ ماؤها فتشققّت ؛ واستحالت الشقوقُ الكبيرة مآويَ لديدانٍ سود كبيرة ، تدخل وتخرج بحركةٍ جنونية ... ولأنَّ الشتاءَ قد أنهزم ولم يتبقَّ منه إلاّ أنسام باردة ولجت من أبواب الربيع المُشرعة في ظهيرة هذا اليوم فأنَّ أجمّات من نباتات صحراوية شرعت تخطف لونَ الخضرة الفتية وتصطبغ بها موحية باستمرار عطاء الحياة ؛ نافيةً الجدبَ التي تلوّح به مقابض الصحراء .. لم نأتِ إلى هذه التلال إلاّ بعدَ تصميمٍ واتفاق على طمر الهواجس في نفوسنا ، والانعتاق من كلمات الخوف والتحذير المنسكبين من أفواه الكبار في مسامعنا .. سنواجه البشر الذين صبَّ الله عليهم غضبه فأحالهم حجراً . سندخل مدينتَهم الحجرية . لن تخيفنا أنفاسُهم وتأوهاتُهم الصادرة من ثقوبِ محاجرهم وأنوفهم وأفواههم . لن نأبه للطيور الجارحة ومناقيرها المعقوفة ، ومخالبها الخنجرية المتربصة التي سنشاهدها فوقَ الجثث المتحجّرة ... هكذا كان تصميمُنا ، وهكذا كانت كلمتنا واحدة / صلبة . لكن هذه الصلابة وذلك التصميم سرعان ما تلبّسا بلبوس التردد والوجل ؛ وكادت أسوارهُما تتفتّت كلّما اقتربنا من المدينة ، وكلّما اكتشفنا بعدنا عن قريتنا . صار بعضُنا يبطئ في حركته تاركاً من كانوا متخلّفين يتقدّمون . وما جعلنا على وشك العودة والانسحاب مدحورين هو النعيبُ الذي انطلق بغتةً من غربان كانت تطير فوقنا ولم نتبيّن وجودها .. يلزمنا الكثيرُ من العزيمة كي نقطع الأمتار القليلة المتبقية لنغدو بمواجهة تلك الهياكل المطمور جلّها تحت رمال كلّستها تعاقبات القرون ... خمسةً كنّا بعد تخلّف اثنين من صحبنا حنثا بوعدهما وبقيا في القرية ؛ وبالتأكيد كان الخوف سبباً في إحجامهما عن المجيء ... توقّفنا للحظات . رمقَ بعضنا البعض . قرأ كلٌ منّا سورَ الخوف من المجهول في عيون الآخرين . لكنَّ ثمّةَ بقايا للتحدّي ما تزال عالقةً في " سبّاحات " نفوسنا الوجلة ؛ وهذه البقايا هي التي انشطرت مراراً مزيحةً عن طريقها مطبّات الخشية والتردّ ... خطونا مقتربين ؛ وكلّما اقتربنا ارتفعت نواصي البناء وبانت أسوارُ المدينة ناهضةً من بضعة تلال متجاورة ... وحين اقتربنا أكثر صرنا نرى لافتةً حديدية مائلة زالَ بعضُ طلائها ؛ استطعنا من خلال التفرّس بها تجميع حروفها المجتزأة ، فقرأنا (مدينة الوركاء) ، وتغافلنا عن الحروف المتجاورة (uruk) . قلنا هذا أول أثر يوحي لامتداد يدِ عصرنا ؛ ولم نرَ غير ذلك .

اقتربنا من سورٍ متهشّم الحواف ، متباين الارتفاعات ؛ يهبط جزءٌ منه حتى يصبح قريباً من رؤوسِنا . رفع أطولنا قامةً رأسه وأطلَّ على ما وراء السور .. همسَ يطلعنا على ما رأى ؛ قال : " إنها مدينة تلال وجدران من " اللِبن" توشك على الانهيار .. هيّا دعونا نتسلّق السور ونهبط ؛ ولكن بحذر ." ... شرع يرفعنا واحداً اثر الآخر

. بعد لحظات خيّلَ إلينا أننّا قطعنا آلاف الأعوام عائدين إلى زمنٍ غائرٍ بعيد .. وقفنا نتطلّع بتوجّسٍ تبررّه طبيعةُ موقفٍ لا يمت إلى الألفة بشيء .

_ ماذا تفعلون هنا يا صغار ؟

هاجمنا صوتٌ من خلفنا .. تجمّدت أوصالنا ، وسرى تيّارٌ من الرعب اغتال بقايا طمأنينةٍ تضمّها جوانحنا . هذا واحدٌ من أصوات الموتى أيقظه وطء أقدامنا ؛ أو أنّه مَلَكٌ سيتولّى استجوابنا ، وأنّها ليست إلاّ لحظات تسبق تحنيطنا واستحالتنا حجراً .. ستتجمّد عيوننا ، وتجف قلوبنا ، وتتجلّمد أوصالنا . سنغدو كتلاً حجرية لا ملامحَ لها .. لم نجد فرصةً تتيح لنا النظر في ما بيننا . عادت صورة قريتنا / أمهاتنا / آبائنا / نعاجنا / مواسم الزرع وسواقي المياه . دعونا الأئمةَ والأولياء والسادة الميتين منهم والأحياء . دعونا شيخَ القرية وكلماتٍ تقول أنَّ رحمةَ الله واسعة ولكن ويل لمن يشرك به فلا يطيع أولياءه ويسترشد بنصائح الكبار وبركاتهم ... اختلجت حناجرُنا ، وتلاشت بواعثُ النطق . تسللَّ إلى آذاننا صوتُ أقدامٍ بخطوات قصيرة . وحين التفتنا مستعينين بما تبقّى لدينا من شجاعةٍ ألفينا أنفسنا أمام عجوزٍ ملتحٍ ، له ملامحُ أهلنا وسحنتهم . يعتمر كوفيّةً ألقى طرفيها فوق رأسهِ ؛ مستنداً على عصا من جريّد النخل .. اقترب منّا راسماً ملامح ودود كأنّه يستنطق وجوهنا المتّشحة بصفرةٍ صارخة .. تلعثمَ أحدنا وتفوّهَ بصوتٍ متقطّع : هاه....

_" كيفَ وصلتم إلى هنا ، يا أولاد ؟"

_" المكـ......اااان " .. قالها أكبرنا مرتعشاً .

– "ما به المكان ؟"

_ "جئـ....نا لنشاهد مَن غضبَ الله عليهم فأحالَهم حجراً ." .. نطق آخر كما لو كان سيقع أرضاً ويغمى عليه .. افترَّ فمُ الرجل عن ابتسامةٍ مقتضبة . رفع يده الطليقة يعدّل بها كوفيته المنسحبة عن رأسه قبل أن يسألنا :

_ هذا ما سمعتموه من أفواهِ الكبار ؛ وهذا ما يدور في أذهانكم .

منحنا كلامُه ثقةً وشجاعةً أعادتا شيئاً من توازننا . صحنا معاً : " نعم ." .. خطا تسبقه عصاه فتبعناه حذرين . كان واثقاً في سيره .. لم تغُر قدماه ؛ ولم يسقط في حفرةٍ تأخذ به إلى أقبية لا نفاذ منها كما خيّل لنا .

_ حسناً فعلتم بمجيئكم . لقد كسرتم حاجزَ الخوف الذي زرعَهُ أمامكم محذّريكم . سأكون سعيداً معكم ؛ وسأُطلعكم على بعضِ مّما في المدينة .

تملكتنا الشجاعةُ ، وتبدّدَ الكثير من وتائرِ الخوفِ القابع في نفوسنا . شعرنا أننّا إزاء رجل يحمل ما يُشبع فضولَنا ، ويحل رموزاً متشابكة في عقولنا .

قال أحدُنا : نريد أن نرى .. وقال آخر : نريد أن نسمع .. وقال آخر: نريد أن نطّلع .

ضحك وقال : سيكون لكم ما تريدون .

صهل حصانٌ من خارج السور فابتسم الرجل لسماعِه . خمّنا أنَّ أحداً قد جاء ، بيد أنّه نظر في وجوهنا ، ثم قال :

–" هذا حصاني الذي أتيت به ، ينقلني كل يوم إلى هنا . فأنا يا أولاد أعمل حارساً لهذه المدينة عينتني الحكومة منذ أربعين عاماً . وما ترونه الآن كان مدينةً حضرية ؛ أُناسها بشر مثلنا ؛ رسموا بوسائلهم البسيطة ما أذهلَ الكثيرين ممَّن قدموا باحثين ومنقبّين . أولئك القوم كانوا ينعمون بماءِ الفرات ، وكان الفراتُ لهم ماءً مقدساً وشرياناً يهبهم الحياة والبقاء . وحينما غيّرَ هذا النهر مجراه نعبَ نذيرُ الشؤم ، ودقَّ ناقوس الفناء فهجروا المدينةَ وتفرقوا أشتاتاً . ضاع بعضُهم في شعابِ الأرض وبطونِ الصحارى فيما رحلَ آخرون إلى الجنوب تاركين مدينتهم تتلقّى غزوَ الرمال وعواصفَ الصحراء المتقادمة بكلِّ قسوةٍ وجفاء . ولم يدر بخلدِهم أنَّ بشراً سيأتون بعد آلاف السنين ليطأوا مدينتهم ، وينبشوا قبورَ موتاهم ، كاشفين أسراراً أودعوها رحمَ الأرض وأهالوا فوقها دموعَهم ومراثيَهم وأحزانهم . "

شدّتنا خيوطٌ من الانتباه لكل كلمةٍ تفوّه بها . كان كلامه مشوّقاً وجديداً علينا . إنّه يمنحنا ثقةً ، ويبددّ هواجسَ ، ويكسبنا نوراً ، ويمحو أوهاماً ضبّبت الأشياءَ وخلطت تخيّلاتنا بتهويماتٍ لا أساس لها . لماذا ظلَّ أهلونا بعيدين عن الحقيقة ؛ متوجّسين من ضوء المعرفة الماثلة التي لا تحتاج إلى جهدٍ كبير ..؟! لماذا خذلتهم الشجاعةُ وأعماهم الزيف فابتعدوا عن أنوار الحياة الساطعة وانكبّوا يحرثون في ثرى الظلام ؟! ...

بعدما قرأ هذه التساؤلات في عيوننا ؛ وبعدما حصدَ الشوقَ المحتشد في حدقاتِنا ، قال :

_ " لقد رافقتُ من حفروا ونقّبوا فأزالوا تراكماتِ الحجارةِ وتكلّساتِ الرمال ، مظهرين الأسوارَ والمعابد وهياكل البيوت . وما يساوركم الآن من ترددٍّ هو ذاته كان يساورني وأنا أراهم منهمكين ، متفحصين . عدّتهم مساطر خشبية ومطارق مطّاطية ، وأزاميل دقيقة ، مزيحين الرمال والأتربة بفرشٍ رقيقة ناعمة . كنت أقفُ خلف ظهورِهم متوجِّساً ، خائفاً محتاطاً من مجهول اعتقده سيشقذ الأرضَ في أية لحظة فيصب لعناتِه وبطشَه فوق رؤوسِ أولئك الدخلاء العابثين . كانت عيونُهم تلتمع دهشةً وسحراً وهم يُظهِرون من بين الرمال أشياءً أضجرها تراكمُ الأعوام .. لقد أخرجوا هياكلَ حجرية لملوكٍ وآلهةٍ . عِدداً ولوازم بيتية ؛ منها أوانٍ وأباريق ، وألواحاً مفخورةً ، وأختاماً نُقشت عليها رموزٌ محزّزة ، ورسوم حيوانات ولوازم صيد ، ورؤوس وحوشٍ بريّة .. أخرجوا حلياً ذهبيةً حَوت قلائدَ وأساورَ وأقراطاً . كما أخرجوا من بين ما أخرجوا رأسَ فتاةٍ نُحتت من الرخامِ الأبيض الناصع ... ما زلت أتذكّر ذلك الوجه الأحمر المحتقَن والجسد العاري ساعةَ اكتشافِه الرأس الرخامي مَطموراً . أتذكّرهُ الآن وكأنَّ صورته حدثت بالأمس . شاهدته يتركَ صحبه ويعدو ذاهلاً ، هائماً ، مهووساً . يرطن كلماتٍ لا أفهمها ؛ مطلقاً صيحاتٍ حادّةً في الهواء كأن عقرباً لسعته أو مديةً طعنته .. وفي تلك الليلة جعل المصباحَ محاذياً الرأس

المنتصب الذي يتوسط منضدة خشبية . راح يتأمله . ظلَّ مستيقظاً طوالَ الليل ؛ ناهضاً بين لحظةٍ وأخرى ، فاحصاً ملامح الوجه بمكبّرٍ زجاجي ... لا أخفي عليكم أنّ هؤلاء وغيرهم ممّن جاءوا قبلهم أثاروا لديَّ حافز اكتساب المعرفة فتعلّمتُ جاهداً القراءةَ والكتابة . ساعدتني في ذلك اندفاعاتُ الشباب حيث كنت أخوضُ في هيجانه .. تابعتهم ، خالطتهم . درستُ كلَّ خطوةٍ يخطونها . تعلمتُ لغاتهم وفهمتها ؛ اطّلعت على فحوى كتبٍ كانوا يأتون بها فأُعجبتُ وتأسّيت . كيفَ نملك كل هذا التاريخ ولم ينل غير الإهمال واللامبالاة ؟!! "

" على امتداد أعوام كان غيرُهم يأتون. لهم شعور شقر مشعثة ، وقمصان متهرئة ، وسراويل قصيرة ؛ حاملين حقائبَ من القماش يستلون من داخلها خرائطَ يفرشونها أرضاً ، ثم تروح أصابعهم تتابع خطوطاً حمر حتّى تصل نقطةً عندها فينقرون فوقها وألسنتهم الثقيلة تلوك : أوروك .. أوروك ." ..

توقّف الرجل يستقرىء وجوهنا إنْ كانت تشي باهتمامٍ ورغبةٍ في ما يقول ، وما قاله لا يدنو إليه الشك . فكثيراً ما كنّا نرى أولئك الغرباء ذوي العيون الزجاجية الزرقاء والبشرة المحتقنة يقطعون قريتنا أنصاف عراة ، مترجّلين في طريقهم إلى هذا المكان .

_ " انظروا هناك . " ... قالها الرجل الحارس .

تطلّعنا جنوباً . ثمّة جدرانٌ من " اللِبن " المتماسك ، دّقَّت فيه كتل اسطوانية من الحجر الأزرق المفخور تشبه مسامير ضخمة تساقطَ بعضها أرضاً ، تاركةً ثقوباً فاغرة كأنّها تترصّد خطى الغرباء المتطفّلين .

_ " تلك هي بيوتهم ؛ وهذه دروبهم . وما تحتها تقبع كنوزهم ومخلّفاتهم . "

خطا قليلاً فتبعناه . قادنا عبرَ دربٍ صخري . صرنا بمواجهةِ بناءٍ عالٍ ذي مدخل مستطيل يرتفع فوقه طوق من "اللِبن" المفخور ، تطليه زرقةٌ لامعة ، وتطعّمه فسيفساء تبرق مشعَّةً بصفرةٍ شابها الغبارُ المتكلّسُ منذ قرون ... وقبل أن نسأله من يكون هذا البناء بادرنا بالكلام :

_ " نحن على أعتاب معبد آنو إله السماء عندهم ، وأنانا آلهة المدينة ."

دلفنا إلى رواق تتسيّده العتمة ، ويغفو على حيطانه هواءٌ يفشي سرَّ قرونٍ مبعثرة .. تسللّت أشرطةٌ من ضوءٍ كابٍ خلال كوى قوسية صغيرة تحاذي السقف فتتّبدد في فضاء الرواق والمعبد قبل ملامستِها الأرض .

– " هنا اعتاد أهل الوركاء تأدية طقوسهم وممارسة شعائرهم مجتمعين ، متوحّدين . ".. قالها الرجل وقد تغيّرت نبرات صوته ؛ مُبدياً مهابةً وتبجيلاً ، متقمّصاً روح إنسان آخر . " وهنا كان الخطباء والشعراء والمنادون يتبارون . تدور حواراتهم ، وتلقى أشعارُهم من أفواهٍ صادقةٍ ونفوسٍ ساميةٍ متضرِّعة ، وأمانيَ

تبحثُ عن سماءٍ وحيها وديمومتها . " ... يأتي الجميع مرتدين ملابسَ مزركشة ؛ معتمرين عمائمَ نُسجت من خيوطٍ صوفيةٍ دقيقة يحيطها صفٌ من ريش الهداهد وقوادمَ أجنحةِ العصافير .. رأيناهم ينتصبون صامتين ؛ لا

تبدر منهم نأمةٌ ولا يرمش لهم طرف . نساؤهم ترفلُ بثيابٍ توشّيها زهيرات بريّة لها لون الزنابقَ والبنفسج . تُحلّي معاصمهن أساور ذهبيةٌ مطعّمة بالشذر الأزرق والأحمر والأخضر . تحيط رقابهن قلائد من ذهبٍ وفضّة تتدلّى منها رقائق تأخذ شكلَ وريقات التوت .. بينهن كانت الحواري نصفَ عاريات ، يرششن ماءَ الورد ويبخِّرنَ الهواءَ بأبخرةٍ مستخلصةٍ من أعشابٍ تُزرع في بقعٍ تباركها وتحميها الآلهة وتسهر عليها عيونُ القدّيسين .. وعلى شريطٍ من أرضٍ مرمرية خطا كهنةٌ عراة الصدور ، حليقو الرؤوس ؛ رافعين بأيادٍ ريشية الملمس سلالاً تملؤها فاكهةٌ اختلط ضوعُها بالأبخرةِ المتصاعدة ؛ وجراراً طافحة بنبيذِ الخلود والديمومة ؛ وصحوناً حوت رزّاً جنوبياً تعلوه أفخاذ غزلان وضباء وأيائل تفوح منها رائحةُ الشواء ... يتقدّم كلُّ هؤلاء ليضعوا ذلك على قاعدةٍ مرمرية مستطيلة أمام الإله " آنو " الجالس بوقارٍ يبعث على الرهبة والخشوع . إلى جواره جلست الملكة " أنانا " حارسةُ المدينة ومانحةُ الخصب ؛ رافلةً بزهو الشباب وطاعة الإله وحب الرعية ... تطلّعنا بوجوه بعضنا . نظرنا إلى الحارس العجوز ، ألفيناه مواصلاً حديثه كأنّه ليس معنا ، أو كأننّا لسنا معه . تصاحب صوته أنغامٌ ابتهالية كما لو كان يُرتّل موشحاً دينياً أو حداءً في مفازات مترامية ... بصوتٍ واحدٍ هتفَ الكهنة :

_ يا آنو العظيم . ها نحنُ نعلن ولاءنا وقدسيتنا لبركاتكم ، ونريد لمدينتنا مثلما نريدها لكم خلوداً أبديّاً .

تردَّد من الجمع المحتشد وقوفاً بمحاذاة الجدران وممّن اتخذوا هيئة الخشوع صدى أصواتٍ رخيمة ، متآلفةٍ هابطة تارةً ثم صاعدة .. تناغمٌ تعيدهُ الجدرانُ والسقوفُ فيلتقي ، ويمتزج ، ويذوب ؛ مستحيلاً سحابة غفرانٍ وتطهُّر وبركات ؛ تهبط بأنّاة هاميةً رذاذاً من الطمأنينة على الرموش المُطبقة ، والشفاه المتمتمة ، والرقاب المتصلّبة ؛ والجةً النفوس المستلقية على راحات الأكف المنبسطة ، آخذةً إيّاها بعيداً إلى عالمٍ سديمي ، تمر عبر أجواءٍ عاصفة ورياحٍ ممطرة ، وأعاصيرَ مجنونة . ثم تأخذها أيادٍ حانية فترسيها على مرافىء آمنةٍ تحدّها مروج ٌ خضر تحتشد فيها الزروعُ ويتنامى فيها الثمر ، وتندلق المياهُ بلّورية لاصفة .. أيادٍ تتيح لها الاستلقاء على الندى العذب المتشبّث بأحضان العشب الأخضر اليانع ، فتغسل تلك النفوس بطهارةٍ أبدية وتعود على جناحِ الحلم ورذاذِ الغيمة إلى العالم الأرضي فتئوب تلك الأصوات الرخيمة المتآلفة تردّد في فناء معبدِها ، وحضرةِ آلهتها :

_ نعلن يا آنو العظيم ؛ يا قاهر الأعداء وحامي حمى الوركاء ولاءنا المطلق .. ويا أنانا ؛ يا آلهة الخصب والنماء ارضعي الأرضَ ديمومةً وعشباً تضيعُ فيه قامةُ إنسان ؛ وابعدي عنّا زحفَ الرمال التي يرميها الأعداء في وجوهنا . أبعديه .. أبعديه .

انحنى الكهنةُ أولاً وسجدوا برؤوسٍ مطأطئة فانكمشت أرديتُهم وسحبتها أكتافُهم العريضة فبانت ظهورُهم بيضاءَ ، ملساء تتكدّس تحت سطحها طبقاتٌ من شحومٍ رخوة . تبعتهم بذات الحركة بقايا الجموع المحتشدة ، المتلاصقة .. ساد بعدها هدوءٌ ثقيل قبل أن ينهض الكهنةُ وتنتصب أجسادُهم فتحاكيهم الجموع ؛ مستديرين يميناً ، متخطّين درباً معاكساً لدربٍ سلكوه عند دخولهم . كانت الرؤوسُ قد اتّخذت هيئة الخشوع وأطبقت الأيادي على الصدور ،

وراحت العيونُ تحدّق في قاعِ الأرض متلاحقةً مع حركةِ الأقدام المتتابعة وحفيفِ أذيال الأردية الهابطة بتمّاسٍّ مع صلابةِ الدرب دون الالتفات يميناً أو شمالاً ... هوّمت سطوةُ الصمت علينا فألفينا ألفنا نسيرُ مع الركب الوئيد حتّى انتهينا إلى بابٍ يعلوه طوقٌ صخري شبيه بالباب الذي اجتزناه .

خرجنا لتسقط أنظارنا على ذيولِ الشمس المنكمشة ، ورعاة من بعيد يقودون حيواناتهم صوب قراهم ، وغيوم تزحف غرباً تسبقها أرتالُ طيورٍ راحلة .. نظرنا إلى وجهِ الحارس فأنبأتنا عيناه مبحراً في زورق التاريخ الغائر بعيداً في أعماقِ الزمن السحيق ... تنبّه لوجودِنا إلى جانبه . تطلّع فينا ، ثم ترك عينيه تنتقلان باتجاه الأفق . قال :

_ " فاتكم الوقت ، وقريتُكم تبعد كثيراً . عليكم بالعودةِ قبل أن يدركم الظلام . "

صهلَ حصانُه صهيلاً متقطّعاً إيذاناً بالعودةِ وترك المدينة تحرس نفسَها بنفسِها .

انطلقت ألسنتُنا تتفوّه بالشكر والعرفان ... شددّنا على يده ، وقلنا : إلى اللقاء .. تحركنا مبتعدين حتى أدركنا اللافتة الحديدية المائلة . وقفنا عندها .. تناول أحدُنا حجراً وكتب : ذكرى علي وجواد وطاهر وكامل وقاسم .

شتاء – 1992

السماوة

(*) فازت بالمرتبة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها جريدة (الجمهورية) العراقية عام 1993

نحنُ والزورق والعم كسّار

لم تكُن المدرسةُ لتبعد عن بيوتِنا المتناثرة على قِفرٍ من خلاءٍ مترامٍ لولا النهر الذي يفصلُها عنّا .. تتهاوى أحلامُنا وتنطفىء كلّما تذكّرنا ورؤوسُنا على الوسائد المواسية أنَّ علينا اجتيازُه في اليوم التالي ، فنتساءل بالتياع : " ماذا لو كانت المدرسةُ على مشارفَ بيوتنا ؟ أو كنّا على مرمى حجرٍ منها ؟" .. لكننّا نتذكّر أنَّ الجانبَ الذي تقع فيه المدرسةُ يقع فيه طريقٌ معبّد ومرورٌ سهل ، ومركباتٌ كثيرة تجري ؛ فتندحرُ أسئلتُنا وتلوذُ منكمشةً في خبايا النفس .

لا جسر يربطُ ضفتي النهر .. وليس لنا لكي ندرك الجانب الآخر سوى الزوارق .. صغارٌ نحن وأهلونا لا يساورُهم الأمانُ إلاّ مع العم كسّار . والعم كسار لديه زورق هو الوحيد القادر على احتوائنا والأخذ بنا إلى الشريط الرملي .. يدفعُ الماءَ بمجدافه فيتهادى الزورق .. قليلاً وتتسلّق أقدامُنا السلَّم الصخري ، المتآكل (يجهد العم كسار في تعديل هذا السلَّم ، وإدامته من وقتٍ لآخر حبّاً بنا ، وعطفاً علينا .) ، وحين ندركُ آخرَ درْجةٍ فيه ندرك أيضاً أننا بلغنا الأمان ، فننفضُ عنّا غبارَ الخوفِ ونجد أنفسنا على خطواتٍ من الطريق المعبّد .

أصيحُ :

_ يا للطريقِ الجميل !

ويصيح شاكر :

_ آه ، لو استلقينا عليه !

يعقبه كامل متحسراً :

_ لو كان قريباً من بيوتنا !

_ نعم .. نعم ! نهتف بصوتٍ واحد .

_ وهل نسيتم الصيفَ ؟ والصهدَ المخبوء في أسفلتِه اللاهب !.. يقاطعنا عدنان ... فنتمتم :

_ آه .. الصيف ! .. الصيف . العرقُ النازفُ من أجسادِنا المتفجّرة باللعب والنزق !! .. اللهاثُ الطافحُ من صدرِ الأرض ؟! ..الزنخُ المتبخّر من روثِ الأبقار المعمول أقراصاً تترصدنا كعيونٍ مطفأةٍ أنّى خطونا ؟!

_ الصيف .. ؟

_ الصيف ..؟

وبكلمةِ الصيف نتذكّر العطش فنحسُّ بالظمأ ونتساءل لماذا لم نشرب من ماءِ النهر ؟ ! لكنَّ خزّانَ الماء الماثل أمام أنظارنا _ عند مدخلِ المسار المُفضي إلى بابِ المدرسة العريض _ يقطع علينا عتابَ أنفسِنا .. نتقافزُ كالقطط ، ونعدو للظفرِ بصنابيرِهِ الثلاثة .. نفتحُها لنملأ أفواهَنا من دفقِها المنهمر (ترك مديرُ المدرسة الشابُ مدرستنا بعد الحصة الثانية . رأيناه من شبّاك صفّنا ينتظر مركبةً نازلةً إلى المدينة . ورأيناه وهو يصعد باصَ القرية الخشبي ويختفي . وغب مرور يوم أو يومين جيء بخزّانٍ كبير . قام كبارُ التلاميذ بنصبه وإسناده . وفي اليوم التالي قدِمت سيارةٌ حوضية ، توقَّفت قريباً من الخزَّان . نزل منها رجلٌ يرتدي بدلةَ عملٍ زرقاء . ومن خلفِ المركبة سحب خرطوماً طويلاً أمسكَ بطرفه ، وبلحظاتٍ تدفّق – مثل حبّات اللؤلؤ _ ماءٌ رائق .. قليلاً وامتلأ الخزان .. في الفرصةِ التالية كنَّا نتسابق فنتحلَّق حوله ونملأ أفواهَنا بماءٍ لم نعرف له طعم من قبل .) ونلمح وراءَ شبّاك إدارةِ المدرسة المديرَ الشاب يتطلّع ، وابتسامة رضا يبوحُ بها وجهُه الأسمر . وحين اقتربنا ، سمعنا صوتاً فيه رقّةُ الأبِ وحنانُ الأم ، يسألنا :

_ هل ارتويتم ؟

نلوذُ ببعضِنا خجلين .. تهربُ سورُ العرفانِ والبوحِ بالشكر . لكنَّ عدنان بجرأةِ المجيب الواثق ، يردُّ :

_ نعم ؛ أستاذ .

ذات يوم ، بعد أنْ قذفَ بنا الزورق ، وودّعنا العم كسار بنظراتٍ ودود حانية اتّقدت الشقاوةُ في نفوسنا .. تصارعنا على أرضٍ ترابية هشّة . تقافزنا .. ضحكنا .. صرخنا ، إلاّ عدنان ! كان هو والصمتُ توأمين .. توقّفنا نرمقُه بارتياب . عرفنا أنَّ وراء صمتِه رأياً مغايراً ، فيه لومٌ صادق وكلامٌ مسموع .. هو يكبرُ أكبرَنا بسنتين أو ثلاث .. نتلمَّس في خطواتِه شجاعةَ الواثق وعينَ المتبصِّر . منه نستمدُ قوتَنا ؛ محاولين مجابهة أشباح الخوف الكامنة في أعماقنا .. مقارعين عواقبَ التحذيرات التي تصبّها هواجسُ أهلينا في مسامعنا كلّما خرجنا أو ابتعدنا عن دائرةِ أنظارهم .

نصاحبُ عدنان وهو يهاجمُ بنات آوى في أوجارِها ؛ ويطاردها واثقاً منتصراً .

ونصاحبه وهو ينصبُ الكمائن والشّراك للأرانبَ السمر ، فيمسكها ويعلّقها من آذانِها على غصن شجرةِ النبق المنتصبة في العراء ؛ بعيداً عن بيوتنا مستأنساً بصوتها الرفيع . ونصاحبه وهو يقودنا إلى فرادى النخيل المتناثرة هنا وهناك .. يحتضن جذوعَها ويتسلقّها حتى يدرك تيجانَها فيرمي بالرطب الناضج المعسول .

_ عدنان ؛ ماذا دهاك ؟!

يصمت عدنان .. نقول :

_ نراك ساهماً ؛ يطوِّح بك الصمت كلّما قدِمنا صباحاً ، أو رجعنا عائدين إلى بيوتنا .

_ العم كسّار . . يجيبُ عدنان ؛ وعيناه تتنقلان من وجهٍ لآخر .. العم كسّار يكبر . لم يعُد يقوى على نقلنا . وأمس ، سمعته يكلّم المدير حين جاءَ لاستلام المكافأة المخصصة له جرّاء نقلنا يومياً ، فيقول : لقد تعبت يا أستاذ . يلحُّ أهلي وأبناء قريتي أن أتركَ الزورق ، لكنّه يعزُّ عليَّ ترك التلاميذ . مَن سيجيء بهم إلى المدرسة ، ومن سيعيدهم إلى أهليهم ؟

وتنقضُّ سياطُ الحزنِ علينا كلّما شاهدنا العم كسّار وأيامَه تذوي ، وتتهاوى مثلَ ثمارٍ ذابلة . يتباطأ في مشيتِه وصولاً إلى الزورق .. يلهثُ بعد كلِّ ضربةِ مجداف ،، العم كسّار كريمُ النفسِ ، طيّبُ القلب ، حلوُ اللسان . نقرأ نقاءَ روحِه وخصبَها عندما تمسُّ يدُه الحانية رؤوسَنا ، أو يضمّنا إلى صدره .. وحين يكلّمنا نكتشفُ فيه خزينَ الحكايات ، وتراكم الأمثال . يحكي لنا عن سفرِه وارتحالاته .. حكاياته مع النهر / الماء / الزوارق / المشاحيف / أهوار الجنوب / مواطير النهر الكبيرة / سفن الصيد / سفره إلى الخليج ؛ هناك حيث الماءُ المالح يحاور الرمالَ الصفراء ؛ وحيث اللآلىء تقبعُ سجينةَ القواقع الصُّلبة القاسية .. ونروح نسأله :

_ هل شربتَ الماءَ المالح من البحر ؟

_ وهل للبحرِ حدودٌ ينتهي إليها ؟

_ وهل رأيتَ جنيّة البحر ، والعروسَ ذات الذيل السمكي ؟

_ وهل ... وهل .....

والعم كسّار لا يضيق ذرعاً بأسئلتنا .

يجيبنا مرةً باهتمام ؛ ومرّةً يبتسمُ أو يفجّر ضحكةً تدمعُ لها عيناه الضيّقتان ، وهو يستقرىء لهفةَ الانتظار، وقلقَ التوجس على وجوهِنا المستفهمة ، أو ربّما على غرابةِ أسئلتنا وبلادتِها (حكى لنا عن العواصفَ التي تتصارع في البحر فتطولُ راكبيه : الصمودُ في وجهِ الريحِ يمنحُ السفنَ الأمان . هكذا كان يردد متحمّساً ، مشدوداً . نلمحُ في عينيه شرراً يتّقد كأنه يستحضر أيامَه السالفة . حكى عن شبابِه ونوادره " للشباب طقوسٌ من لا يتقنها يلفظه الشباب فيهرم سريعاً " . ويوم أبِحنا له بعيونٍ تفيض أسفاً عن حزنِنا وخوفنا عليه ؛ أجابنا وعيناه تلتمعان بابتسامةٍ هي مزيج من الأسى على نفسه ، والشفقة علينا :

_ هل تريدون للحياة أن تدوم للجميع ؟ سيأكل أحدُنا الآخر لو صارت كما تتصورون .

هي الأسئلةُ المؤلمةُ ، المتوارَثةُ مَن يقدِر على خنقِها ورميها إلى العبث واللامبالاة ؟!

أسئلةٌ :

_ أطلقتُها على جدّي ، فهزَّ رأسَه مرات عديدة قبل أن يجيب : ما زلت صغيراً على الإجابةِ يا ولدي .

_ وأطلقها شاكر على أبيه . فتحسّر ولم يجبه .

_ وأطلقها كامل على أمّه . فبكت وضمّته إلى صدرها .

ونبقى نطلقها على أنفسنا ...

ويبقى النهر يسير ...

ويبقى الزورقُ ينقلنا باستمرار ..

وتبقى الريحُ تارةً معنا ، وأخرى عكسنا . وقد ازدادت هذه الأيام ففجّرت الخوفَ والهواجسَ لدى أهلنا وجعلت المديرَ الشاب ومعلمينا يبوحون علانيةً بقلقٍ ممضٍّ علينا . تشرّبت مسامعُنا بتحذيراتِهم وخشيتهم من أنْ يصيبنا سوء . صرنا نتساءل حيارى ، مرتابين ، هل يعقل أن نترك المدرسة وراءنا فنقطع آخرَ حلمٍ نحتفظ به في حدقاتنا ؟!

ذلك الصباح أنبأني سعفُ النخلة المنتصبة في حوش الدار عن ريحٍ خفيفةٍ تهزّه . فتحتُ البابَ وخرجت ، شاهدتُ عدنان من بعيدٍ يخرج أيضاً . أومأ لي واستدار جانباً ينتظر شاكر وكامل اللذين كانا على مقربةٍ منه ، مخلّفين وراءهم بيوتاً لا تُرى .

الهواءُ يطير ، ينقلُ غباراً وذرّاتٍ باردة غريبةٍ آتية من أماكنَ نائية :

- أرضُها بيضاء كالقطن .
- سماؤها داكنةٌ كالرصاص .
- هواؤها يهمي ضباباً كالدخان .

صاحت بي أمّي للمرّة الأخيرة :

_ تخلّف هذا اليوم ، فقد تكون ثمّة عاصفة ربّما تطوّح بكم في وسط النهر وتغرقكم .

التفتُّ لأودّعها ، رأيتُ أبي يتطلّع إليَّ من خلف الموقد المشتعل بنظراتٍ محايدةٍ ، ولم أسمع منه كلاماً .

كنّا نمشي فنبتعد ، وكلّما ابتعدنا اكتشفنا هبوباً متزايداً للهواء ، وتياراتٍ من سهامٍ باردةٍ تندفع لاذعةً أجسامنا ، مثيرةً القشعريرة .. تمنينا الدفء . افتقدنا المواقد ، حنيناً إلى ألسنة النار المتفجّرة .. تذكّرنا الفراش ، ودفء الأغطية السميكة وأحضان جدّاتنا وأمهاتنا وأخواتنا الكبار ونحن نتكوّر فيها احتماءً بها من البردِ وأشباحِ الخوف الراقصة في عتمةِ الليل .. وفكّرنا بالعبور ، وبالعم كسّار (لم يظن أحدُنا أنّه سيتركنا في موقفٍ كهذا) لكنَّ الهواء شرع يستحيل تياراً متواصلاً من الهوجِ والاندفاع . واصلنا السير في وجِه الريح ، حتى وجدنا أنفسَنا على

أعتابِ النهر . بدأ النهر واسعاً ، عريضاً ؛ والضفة الأخرى تبتعد ، كأنَّ يداً خارقة تنأى بها . ووراءها احتشد الضبابُ فحجبَ رؤى موجوداتٍ اعتدنا رؤيتَها كلَّ يومٍ شاخصةً تسقيها الشمسُ دفقاًَ من دفئِها وضوئِها ولمعانِها . وعند الجرف ونحن فوق أبصرنا العم كسّار يلوذ بصخرةٍ كبيرة . نهض إذْ رآنا .. صاح بصوتٍ وصلنا سريعاً :

_ هيّا انزلوا . يجب أن أوصلكم .. هيا ؛ تشجّعوا .

وطىء عدنان درباً ترابياً منسرحاً فتبعناه .. قرَّبَ العم كسّار الزورقَ ناحيتنا . صعدنا واحداً إثر الآخر . كانت قدم العم آخر قدم تترك الجرف . أمسك المجداف ، غرزه في الأرض الطينية ودفعَ فاندفعَ الزورق ... برقَ في السماء ضوءٌ منكسر . تهاوت علينا قطراتُ مطرٍ رشقت وجوهَنا أولاً ؛ ثم بوقتٍ لا يُصدَّق استحالت مطراً غزيراً ، زوابعَ ورعوداً .. حشودٌ من غيوم تسلّقت الهواءَ وتوقّفت فوق زورقنا ، نازفةً شلاّلاً يرمي مياهاً لا تنقطع .. تلاطمَ الموجُ فأهتزَّ الزورق . تمايلت أجسامُنا الصغيرة .. تشبّثت أكفّنا بحافاتِ التقاطعات الخشبية الممتدّة بين كتفي الزورق حيث نجلس ، بينما أكفّنا الثانية تُطبق بشدّةٍ على حِزمِ الكتب التي أخفيناها تحت ملابسنا .

صاح العم كسّار وهو يطعن الماءَ المجنون بمجدافه :

_ اتركوا التقاطعات ، واجلسوا في جوف الزورق . العاصفة تزداد جنوناً .

تقتربُ أجسامُنا بعضها من بعض . نسعى لاتّقاءِ هوجِ التيار وعصفه المُثلِج .. نتكوَّر ، نحتك فنبدو كجراءٍ داهمتها أخطارٌ مباغتة .. نتطلّع إلى العم كسّار ، نراه يحني جسدَه إلى أمام في محاولةِ مجابهةِ الريح ، وسعياً لدفع الزورق الذي بدا كأنَّ قوّةً جبروتية تسحبه من جوفِ النهر فتسمّره في مكانه .. خُيّلَ لنا أنَّ هبّةً مفاجئة من الهواءِ العاصف ستُسقطه وترمي بالمجداف بعيداً ، لا تلبث أيادي الهواء المجنون أن تمتدَّ فتقلب الزورق فيبتلعنا النهر ويأخذ بنثارِ كتبنا بعيداً عن أيادينا .

هتف عدنان :

_ لا يجب ترك العم هكذا . ستضمحل قواه وترتخي ؛ ويسقط .

دفع كتبَه إلى تلميذٍ يتقرفص مرتجفاً ، ونهض . صحنا به مرعوبين ، غير أنّه لم يأبه . بدا واثقاً مصممًا .. صاح :

_ عمّي ، دعني أساعدك .

_ .....

_ عمّي ، لقد تعبت أعطني المجداف .

بفزعٍ صرخَ العم كسّار :

_ ابقَ مكانك ، ستقذفك الريح .

كنّا وسط النهر ، وما زالت الضفةُ الثانية بعيدة ، بل تنأى بعد كلِّ ضربةِ مجداف .

اندفعَ عدنان .. دفعَه الريحُ . كاد يسقطه . تشبَّثَ في وقفته . قليلاً ورفع قدماً كي يخطو إلى العم كسّار . صاح به العم مرةً ثانية .. صاح . ولمّا وجده لا يأبه لتحذيراته ، هتف :

_ هناك مجداف في زاوية الزورق .

_ أين ؟

_ خلفك .

استدار عدنان . جسدٌ يتوثّب وعينان تتّقدان . انحنى .. أمسك بمجدافٍ تغطيه قطعة قماش سميكة .. خارت قوى العم كسّار . ترنّح قليلاً ثم هوى إلى النهر . التهبت عيونُنا شرراً . بصوتٍ واحد صرخنا :

_آآآآه .

نهضتُ من مكاني . كان المجداف قد سقطَ في جوف الزورق .. أمسكتُ به . دفعته إليه . حاولَ الإمساك .. تشبّث .. اقترب .. حاول . عام قليلاً ، لكنَّ قوة التيار وتلاطم الموج كبّلت حركته .. صحنا بصوتٍ عالٍ :

_ حاول .

فصاح بصوتٍ واهن :

_ لا أستطيع .

_ تماسك .

_ انتهى كلُّ شيء ، تماسكوا أنتم . لا تدعو الزورق يتمايل . سينقلب .. سينقل......

ابتعد عنّا .. صار علوُ الموج يحجبُه عن أنظارِنا .. يظهر قليلاً ويختفي .. يظهر ويختفي .. لم نعد نراه / لم يعد يرانا . لم تبقّ إلاّ اليدان مشرعتين . راحتا تهبطان .. لقد اختفتا .

صرختُ .. صرخَ غيري . زاد الصراخ . كدنا ننسى أنفسنا وسط :

- ريح تتفاقم .
- وموج يعلو .

- ومطر يشتد .

- وزورق يتمايل .

لكنَّ عدنان صرخ بنا .. صاح بي :

_ لا تدع المجدافَ يهوي من يديك . امسكه جيداً . علينا أنْ نصمد .

- صمدنا .

- وتماسكنا .

- وصارعنا .

- وتصالبت أذرُعنا ؛ حتى أدركنا الضفةَ الأخرى .

في اليوم التالي هدأ كلُّ شيء . وفي الصباح خرجنا مخلفين وراءنا البيوتَ والشجيرات ، وبنات آوى ، والأرانب السمر . التقينا جميعاً بينما تخلّفَ عدنان . اعتقدنا أنَّ جهدَ اليوم الفائت والأسى المتراكم لفقدان العم كسّار سبباً في ذلك .

عند وصولِنا إلى النهر ، ونحنُ فوق أبصرنا _ ويا لدهشتنا _ عدنان . كان قريباً من الزورق بانتظارنا . نهض إذْ شاهدنا .. هتف :

_ تعالوا .

تقدمنا .. وطئنا درباً ترابياً منسرحاً .. صعدنا إلى الزورق . تناول هو المجداف فيما تناولتُ المجداف الثاني . بضربةٍ واحدة كان المجدافان يدفعان ، وكان الزورقُ يندفع هادئاً واثقاً ، ينساب فتنسابُ على وجوهِ التلاميذ نشوةٌ نَمَت وكبُرت واستمرت حتى وطئنا الشاطىء الرملي وارتقينا السلّم الصخري ؛ وأدركنا الطريق المعبَّد . لحظتها وقفنا مُنتصبين . تطلّعنا صوبَ النهر . كان الزورقُ يتكىء عندَ حافةِ الجرف والنهرُ كعادتِه يجري .

وحين استدرنا رأينا وراءَ شبّاك إدارة المدرسة ثمّةَ عينين تسكبان دهشةً ، وتتابعنا بارتياح .

شباط 1993

السماوة

القـرار

حُلكةُ الليلِ ترتفعُ كدخانٍ أسودٍ كثيف لتوشِّح وجهَ الأثير ، صاعدةً نحو السماء . وليست السماء إلاّ محاكاة لهذا الوشاح وتطابق للونِه لولا الأنجم البيض اللاهثة على أديمِها . الدربُ ترابيٌّ ومتعثِّر ، فيه التواءاتٌ وانحرافات ، هبوطٌ وصعود .. إذاً عليك باليقظةِ والتحسُّب للمفاجأة . قد لا تُسعفكَ عيناك ، ولا ينفعك التمعُّن في الموجودات ؛ فالظلمةُ تمارس اغتيالَها لمنابتِ الضوء . لهذا ينبغي اعتماد بصيرتك في تلمّس خطاك .. خُطاك واسعةٌ ، وأنفاسُك لاهثة ، والصوتُ يتفجّر داخلك كل لحظة : " الرحمة . افعل شيئاً .. إنني أموت ." . تتقبضُ نفسُك وتسري ارتعاشةُ خوفٍ مجتاحةً أوصالك . تتذكَّر أنّكَ تركته يتوجَّع متقلباً ؛ تفتكُ بخاصرتِه سهامُ الألم ؛ وتبضِّع كليتَه مشارطُ المغص الحاد . تتمثَّل صورتَه : يدٌ تقبض على مكامن الألم ؛ ويدٌ مُشرعة تستغيث ، وسخامُ الفانوس يُطبق على ذُبالةٍ باهتة تلقي ضوءً شاحباً يركد على قسمات وجهِه المنكمِش .. أُختاك في زاويةِ الغرفة متكورتان ، لا تعرفان ما تفعلان سوى استجداءِ الدموع والبكاء الذي يخترق بعضُه الصمتَ (هذا الصمت هو في الحقيقةِ ذهولٌ مهيمن) . خرجتَ إلى وسط الحوش وتطلّعتَ ؛ اكتشفتَ بيتكم منعزلاً وكل ما حوله فراغٌ حالك .. عليك إذاً ركوب أجنحةِ الريح كي تقف على عتبةِ بيت الطبيب ، المجاور لمستوصف القرية .. تضرب جرسَ الباب وتنتظر . بعد وقت يخرج إليك متباطئاً . يداه تدعكان عينيه .. ربّما كان نائماً ، أو ربما كانت عيناه تطوفان سائحتين في تأملٍ فكري تتابعان حركةَ الكواكب ، ولألاءَ النجوم ، ولهيبَ النيازك المحترقة . تقف إزاءه متضرعاً : " أبي ، يا دكتور ، تركته يتمرغ كالملدوغ . لا أحد لنا ، وليس عندنا غيرك . " . تتلقّف قدماك الدربَ بقلبٍ واجف وأعصابٍ مشدودة فيما يدُك تمسك عصا غليظةً ذات طرف تعممّه كتلة قار متحجّر في تحسّبٍ متوقّع لأيّ ما طارىء معيق . أمّا هذه العتمة وهذا السكون فلن يخيفاك . أنتَ وليدُ هذه الأرض : البساتين / الأشجار / الأخاديد / الأجمّات / الأكواخ / تفرعات السواقي ؛ صورٌ تملَّتها عيناك واستقرَّت في يمِّ ذاكرتك .. بعد قليل سينحرف بك الدربُ شرقاً ؛ خذه حتى تبلغ البستان الكبير _ هذه الكثافة الداجية بنخيلها المتطاول وتشابك أشجارها المحتشدة _ ومدخله المحصور بين عمودين حديديين ينشدُّ في طرفيهما سورٌ معمول من أسلاك متوازية وسعف نخيل متعامد . يركبه الخوفُ ويحاصره الرعبُ مَن يبغي اجتياز البستان في هذا الوقت الداجي إذْ ربّما يكتشفه المزارعون صباح اليوم التالي جثّة هامدة ، أو جذعاً متخشّباً أو هيكلاً فقرياً تبخرت أنسجته .. مسلك مخيف / دربُ متاهة بلا شك . لكنك لن تهابه بالتأكيد ، فقد تخطّيته من قبل .

*****

كانت لحظاتُ غروبِ ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام خلت شاحبةً / كئيبة . هناك ريحٌ مغبرّة تضرب بإطنابها على الموجودات وأسرابُ طيورٍ تدفعها الريحُ غرباً ، ثم تغوصُ مع شتات غيوم يمغنطها الأفقُ الغسقي . لم يكن أبي قد عاد من زيارةٍ قريب له كان يعمل في دولةٍ خليجية عندما تركت أمّي الخبز يتفحّم في " التنّور " المشتعل والعجين في الإناء وارتمت تتلوّى ممسكةً أسفل خاصرتها اليمنى .. وجهُها الحنطي امتقعَ فجأةً ، واستبدَّ به شحوبٌ قاهر . هرعت أختي الكبرى إليها تسألها بارتباك عمّا جرى وما يجري .. تستدعي صورةُ أمّي معرفة السبب ، فالملامحُ الغريبة التي وشّحت وجهها تُفصح بصورةٍ جلية تردّي حالتِها (هي المرأةُ عندنا تكتمُ وتكبت ، وتتغاضى قبل أن تنفجر . وانفجارُها يعني الموت صامتةً ، متحاملة . أمّا شكواها / أوجاعها / أحزانها فتحملها في جبِّ قلبها الدفين لتتوسّد مع جسدِها الضامر النحيل حجارةَ القبر .) . نادت عليّ أختي . نقلناها والخوفُ كابوس ينقضُّ بأجنحتِه السود ، والنفوس تتصحّر بظمأ جفاف قاهر .. موقفٌ غريب ؛ غريبٌ في تصوره / غريبٌ في معالجته / غريبٌ في حسمه . يا لبؤسِ أمّي ، ويا لحزننا نحن المشدودين إليها ، المتعلّقين بها . أطلّت أختي التي تصغرني من الباب وصرخت !! .. ارتمت عند قدميها تنتحب . كانت ذيولُ النهار المبتورة تتلاشى ؛ وألمُ أمّي يزداد ؛ وأبي يقيناً الآن يرتشف فناجينَ القهوة ويحرق لفافاتِ التبغ مستأنساً لحكاياتٍ يحكيها قريبُه عن ذلك البلد المرابط بين بحرين : بحر من المياه الزرقاء ، وبحر من الرمال الصفراء .

– " اذهب ! استدع أباك . " .. قالتها عيناها المتضرعتان .

– " حالاً كالبرق . " .. هتفَ قلبي المُختلج .

*****

ذهبتَ .. ما أشبه اليوم بالبارحة .. هيَ ؛ هيَ . تلك الدموع وحرارتها .. هوَ ؛ هوَ . ذلك القلب ولوعته .. ما رفَّ لكَ جفنٌ وأنت تخلّف البستان وراءكَ . تقدّمتَ ؛ تطفو فوقَ مداد من سكونٍ مُنتَهَك . هذا الانتهاك يأتي من صفيرٍ مألوف لحشراتٍ تكمُن في ثقوبٍ تحتويها جذوعُ النخيل ؛ أو من متاهاتِ شقوقٍ تضمّها جدرانٌ طينية لأكواخٍ مهجورة . خشخشةٌ مكتومة تثيرها حركةُ عضايا بين الحلفاء والدغل المتيبّس . نجومٌ تتبعثر سافحةً ضوءها في صيرورةِ رفضِ الظلمة . ومجرّاتٌ تترامى آلفها ضعفُها وتقهقرُها سعياً للتوقّد المستديم .. هذه المكونات وغيرها تتابع خطواتك ؛ تراقبكَ تتغلغل في تخومِ روحك المستلَبة قسراً ، وعصف أفكارك المبتلاة بالقلق . ولولا الأنسام الباردة التي تتعطّف عليك كلَّ حين لتفاقمت الحرقة في صدرك ، ولوجدتَ الطريقَ متاهةً بلا طائل .. سرْ بمحاذاة مزارع الشلب (الرز) السابح في الماء ريثما تبلغ الدربَ المسفلت الراحل إلى المدينة . اقطعهُ ، ثم غذْ السير أكثر ؛ فالليلُ يقترب من الانتصاف والطبيبُ قد يرفض ركوبَ المغامرة في هذا الوقت الملغوم بالمجاهيل والاحتمالات .. أيقظتكَ صرختُه الغريبة فزِعاً . سلبتك من حلمٍ كنتَ سادراً فيه .(في هذا الحلم وجدتُ نفسي على زورقٍ أبيض أنشر شباكاً خيوطُها حريرٌ لامعٌ وسطَ نهر عريض ، ثم أجمعها .. صيدي : أسماكٌ بلّوريّة تتلاصف / كائناتٌ خيطية تتلوى كأنها تؤدي رقصاتٍ بكائيةً / طيورٌ تنفضُ عنها شمعاً كانت

غارقةً في تحنيطه / زهورٌ تطفو سابحةً على رغوةٍ بنفسجية / وجوهٌ لها ملامح مألوفة أجاهدُ في تذكّرِها . بينها يلوح وجهٌ أبهتْ لرؤيته : جبهةٌ منكمشة ، عينان ذاويتان ، خدّان ذابلان ، شفتان ترسو عليهما كلمات مثل : اللهفة / اللقاء / الشوق / البعد / كيفَ أنتَ / أحنُّ إليكم / أُختاك / أبوك / شاقني البيت / الألم / التحمّل / السماحة / الغفران / ما زلتَ صغيراً في عيني / الدموع / الفراق / امسكْ الدقّة / الزورقُ يتمايل .. صرخةٌ تشقّ الصمت .) . عيناك تتقذفان في لُجّةِ الظُلمة . كان قد عادَ من الزرع يضربُ التعبُ أزاميلَه الحادّة في وجهه المتغضّن . قضى النصفَ الثاني من النهار يفرّغ المروز من ماءٍ يركد في مسارِها منذ أيام ؛ مستبدلاً إيّاه بآخر أكثر عذوبة . كان الوجعُ يعاوده بين وقتٍ وآخر ؛ لكنّه لم يأبه له . يحسبه آتٍ جرّاء الإجهاد وزائلٍ بعد راحة .. هذه الليلة باغتَهُ على نحوٍ أشد . ألفى نفسه منقذفاً في جحرِ ثعابين يتلقّى لدغاتها اللاهبة .. أبوكَ مكابرٌ عنيد . كبرياؤه تلجم بواعثَ النصح الآتية من الغير سيما لو جاءت ممّن هم أصغر عمراً .. شحوبُ وجهِه ، وذبولُ عينيه جعلت أختك تبوحُ إليه بضرورةِ مراجعة طبيبِ القرية أو النزول إلى المدينة كي يعرض نفسه .. يضحك ، ومستخفّاً يجيب : " لو كان دواؤهم نافعاً لما رماه المراجعون عند جدارِ المستوصف حال خروجهم ." . وحين تفوّهتْ قائلةً : " ولكن أمّي ماتت لأنّها لم تُعالَج . " امتقع وجهُه ، وجحظت عيناه فيما تطاير الرذاذُ من فمه وهو ينهرُها بعنف

******

تحركتُ على عجلٍ .. قدماي تتعثران وسطَ ارتباكٍ مهيمن . الخشيةُ في أنْ لا أجده فيتعسر الحال . ضروبٌ من الهواجس المروّعة كانت تستبيحني وتزيد إلى الظلمةِ الماثلة ظلمةً أشد . سؤالٌ شرع ينمو وينشطر في متاهات الروح : هل ستموت أمّي فتنطفىء الشمسُ ، ويموت الزرعُ ، ويجفُّ النهرُ ، ويحتضرُ الصباحُ ، ويعطشُ البحرُ ، وتنسفحُ الدموعُ ، ويتشظّى القلبُ ، ويهرمُ الزمنُ فتتفكّك مفاصلُ الفصول ، وتغور الأماني في قاع المستحيل . وقتها ستتهاوى طيورُ الرغباتِ المضرَّجة باليأس عندما لمحتُ قامتَه في العتمة مقترباً .. هرعتُ إليه منتحباً / منكمشاً . فوجىء لرؤيتي . أسمعتُه ما جرى تفصيلاً . سقطت لُفافةُ التبغِ من بين شفتيه . داست إحدى قدميه جمرةَ اللفافة المتدحرجة أمامه (جمرةُ قلبي التي تكبُر وتتضخّم وتستحيلُ كتلةَ نارٍ تشقُّ صدري وتخرج ، تحرقُ ما تمرّ به ، وما تمسّه بلوغاً إلى النهر ؛ لحظتها توش .. شش.. شش ؛ لكنَّ النهرَ يستحيل إلى مجرىً مُنحسِر . ماؤه دفقٌ من سائلٍ نافذِ الرائحةِ ، سرعان ما يشتعل فتستطيلُ ألسنةً تبلغ حدودَ الغيوم النائية .. آه ، يا حسرتي .) . أحسستُ بارتباكِه . الأسئلةُ تتقذفُ مشوّشةً من فمه وأجدني أجيب ، وأعيد ما حصل ، وهو كالذاهل يردد : " نعم .. نعم ؛ وماذا بعد ذلك ؟ ! " حتّى إذا وصلنا اندفعَ إلى حيثُ أمّي الممددّة . ألقت عيناهُ المرتبكتان نظراتِهما على وجهِها الشاحب وعينيها المستجيرتين ، محاولاً تمالكَ نفسِه المضطربة ، ويديه المرتعشتين . سمعَها تُردّدُ بخفوتٍ :" سأموت .. سأموت ".. يسألها :" ماذا أفعل ؛ إنّه الليل !!".

والليلُ في نظرِ الجميعِ يعني الجمودَ / التوقّفَ / المشاريعَ المؤجّلة / الأيادي المغلولة . إنَّ نقلَها إلى مستوصفِ القرية النائي يُعَد ضرباً من المستحيل ، ومحاولةً تدنو من الجنون . ثمَّ أنَّ طبيبةَ المستوصف وممرضتَه هما

الآن تحت أضويةِ " النيون " الفضّيّة وأمام الشاشات البيضاء ؛ على الأفرشةِ الوثيرة في المدينة التي تتقطعُ وشيجتُها مع الأريافِ في هذا الوقت الثقيل .. لأولِ مرّة أكتشفُ عجزَ أبي وتخاذله ؛ وافتقادَه لخيوط الحسم ... إذاً هي المغامرةُ التي عليَّ الشروع بها . لن أحسب للعواقب .. علاجُ أمّي وشفاؤها ينبغي إتمامَهما . يجب أنْ أخرج الآن .

****

ها أنتَ في مواصلةِ السير . وها هوَ الطريقُ ما يزالُ طويلاً مليئاً بالمفاجآت .. السكونُ يفتضّهُ نقيقُ ضفادعٍ آتٍ من بُركةِ ماءٍ على يمين الدرب حيث سيقانُ القصب تنهضُ كقامات رجالٍ يافعين متلفّعين دروعاً سود .. تلفّتَ شمالاً . ليس غير زروعٍ غافيةٍ وأضواءٍ كامدةٍ قادمةٍ من كوى أكواخٍ بعيدة .. الطريقُ أمامَك غائرٌ تُذكيه ظلمةٌ قاهرة (ما لهذه الحياة ترمي بهذا الفتى الغض في مسالكِ القسوةِ الموغلةِ في التجنّي ؟! .. ما لها تمتصُّ ظلامَ الدنيا فتنفثُه في وجهِه ؟).. لن يبقى حتى الصباح . سيصرعه الألم . وإذا كان ذلك المغصُ المتجبِّر قد مررَّ عليه تلكَ الأشهر والأيام وتركَه بسلامٍ فالمرّة هذه لن تشفع له قوّةُ تحمّله . لو كان الألمُ في إصبعٍ لبتَره أو في يدٍ لقطعَها لكنّه متفشٍّ في جوفِه ؛ ينشرُ شِباكَ سطوتِه فوقَ مسالكِ الجسد المُنتهَك . لقد قرأتَ تخاذله عندما التقت عيناك بعينيه البائستين . شاهدتَ البريقَ وهو ينحسر / تذكّرتهُ ! . ذلك البريق الراشح من عينيها : العينان الكسيرتان المستنجدتان / الشفتان اليابستان المتقشرتان / اليدان المرتعشتان . ضغطتَ يدها .. هيَ .. هيَ ذات اليد أخذتكَ إلى الفرات ، وإلى جانبها تلكَ المرأة ذات الوشم التاجي المتسلسل من أدنى شفتها السفلى حتى قعرِ الحنك الملموم . تتلو بعضاًُ من سوَرِ الرحمن ، وتردّد أسماءَه الحسنى تتابعاً وهي تخلع ثوبَك ؛ تُعرّيك دافعةً بجسدِك الصغير إلى الماءِ كأنّها تُعمّدك ، فيما نظراتُ أمِّك راعشةٌ حانية تلاحقك ، تحتضنك خشيةَ أنْ تفلت من يدِها ويأخذُك النهرُ . تسمع صوتَ المرأة ذات الوشم التاجي : " سيكون نقيّاً طهوراً طيّعاً لكِ ولأبيه .". تعجُّ دموعُ البهجةِ طافحةً في الحدقتين متّخذةً مسارين على الخدّين الأسمرين .(نعم ، دموع الأم لآلىء تتفصّدُ على صحائفَ الطهرِ .. رسالةٌ تخترقُ فضاءاتِ العمرِ العابر من محقّات الطفولة / الفتوّة / الشباب / الكهولة / الشيخوخة دائرةً في فَلك هناءة البراءة / لذّة الحديث / سلامة اليقين / راحة البال / دوّامة الأسى والذبول .) . أردتَ القول أعرفتَ قسوةَ الألم يا أبي ؟ هل تبيّنتَ انقضاضَ العارضِ غير المحسوب ؟ ألم يطرق ذاكرتَك شبحُ أمّي ؟!؛ دموعُها وتوسّلاتها ؛ رجاؤها لفعل شيء ينتشلها من جنونِ الأوجاع التي مارست استباحتها في دائرة التجبّر والاستحواذ ؟ .. لابدَّ أنّه فهمَ نظراتِك المصوّبة على منافذ ندمهِ . لابدَّ أنَّ السنوات الثقيلة بعد موتِها تمخّضت عن زمنِ عذابٍ واحتراقٍ ؛ تكفيرٍ عن ذنب ، استماحةٍ على جهل .. خفّت إلى مسامعكَ من بين ثنايا السكونِ وسطوةِ الصمت لطمةُ موجةٍ على كتفٍ رملي فأدركتَ اقترابَ الفرات من عينيك .

****

تكاثفت العتمة ، واحتشدت أسرار الطريق . لكنَّ منابت الثقة في الوصول تجذَّرت .. لا تخيفني وحوش الأرض ، والمجهول لا أهابه (من يراه تلك الليلة يظنّه فتى ركبَ رأسه جنّي ، أو جنّي تلبَّسَ بلبوس فتى) . قطعتُ الطريق واجتزتُ البستان ، ومررتُ بمزارعِ الشلب / الرز ، ثم بركة القصب حتى دستُ أرضاً رمليّة هشّة ؛ عندها تبيّنت الفرات قدّامي .. الموج نستثار ، مُستفَز من هبّات ريح متذبذبة .. هرولت إلى قاربنا الموثوق إلى الأرض ؛ دفعته إلى النهر . سحبتُ المجدافَ المربوطَ في جوفِه وجدفت أبغي الضفة الأخرى .. عبرتُ النهر ؛ أرسيتُ الزورقَ، ربطته إلى وتدٍ غائرٍ في الرمل ثم صعدت . لحظتها دقَّ الإنهاكُ طبولَه في أوصالي المشدودة ؛ بيدَ أنّي تحاملتُ . سرتُ قاطعاً أرضاً مزروعة ؛ خلّفتها مقترباً من الروف المرتفع .. صعدتُ إليه ورحت أتطلّع .. يفترض من وقفتي هذهِ رؤية بناية المستوصف وإلى جوارِهِ بيت الطبيب ، لكنّي لم أبصر غيرَ مصباحٍ أصفر على لافتةٍ مستطيلة بينما هناك ضوء " نيون " في واجهة البيت .. هبطتُ خلالَ دربٍ منسرح أخذني إلى الباب الرئيس . ضغطتُ على زرِّ الجرس .. لحظات مُربكة تمخّضت عن شاب طويل لم أستجلِ ملامحَه . تفرّسَ في وجهي ، ثم سمعته يسألني عمّا بي .. استجمعتُ قواي ولملمتُ شتاتَ الأحرفِ الهاربة ، وهتفتُ :" أمّي .. أمّي ! " بينما عيناي تطفحان بالدمع وقدماي تعجزان عن حملي فأخورُ متعباً منهكاً عند قدميه .

******

استجدَّت هالةٌ مُضبّبةٌ ساعةَ انفراجِ الرموش وابتعادِها فانجلت عن مصباحٍ حليبي متدلٍّ من سقفٍ تبني الطلاء ، ووجهين مدوّرين لطفلين يتفرسان بحذر . تفوّه أحدهما : " إنّه يفتح عينيه ، يا أبي ! " فابتسم الوجهُ الذي ظهر بغتةً ، وقال " ها ، يا بطل . لقد اختزنّ جسدُك الكثيرَ من التعب . قُل لي ما بك ؟ "

بعد قليل كنّا نقطع الطريقَ سالكين ذات الدرب الذي اتخّذتهُ . اعتلينا الزورقَ وكنا نُبحر في ظُلمات الليل . وكان هو بين لحظةٍ وأخرى يمارس فعلَ الإنصات أو يرفع رأسَه كأنّه في رحلةِ استكناهِ النجوم . يلتفت إلى الجانبين ربّما ليكتشف من هذا المكان تغيّر حركةِ الريح التي بدأنا نسمع تأثيرَها على أوراقِ صفِّ الأشجارِ المحاذية للشاطىء .. لم يسألني إنْ كانت المسافةُ طويلةً إلى البيت . كان جُلُّ همّه أنْ يصل ؛ يفحص ويعالج ، ويفتي ؛ فقد خمّنَ خطورةَ حالةِ أمّي وضرورة معالجتِها سريعاً ... تركنا بركةَ الماءِ والقصبِ الطالع ولم نأبه للضفادع التي زاد نقيقُها وراح ينتهك أستارَ السكون المضروب على الأشياء .. وصلنا البستانَ واجتزناه ؛ وأخذنا الطريقَ صوب البيت . أقول ذاك هو بيتنا ، إنّه هناك لكنّه لا يتّفق معي ؛ فكل ما أمامه عباءةٌ سوداء . أقول لو كان القمرُ طالعاً لشاهدنا البيت ، وشاهدنا شجرةَ التوت التي زرعتها أمّي علامةً لبيتنا عندما يزورنا أقرباؤنا الآتونَ من أريافٍ بعيدة .. فاجأني أنينٌ متواصل ، وصرخاتٌ مبتورة .. تبعثرت سنواتي الأربع عشرة حين رأيتُ أمّي يائسةً خائرة ، وأُختيَّ قطّتين لائبتين . كانت ثمّة امرأتان تسكنان على مبعدةٍ منّا لا أعرف كيف حضرتا . : " تماسكي ، يا أمّي . جئتُكِ بمن يُشفيك ؛ إنّه الطبيب .. أينَ أبي ؟! " .. أبي يقبعُ في الغرفةِ الثانية قانطاً . يدُه تعبثُ بحبّاتِ مسبحتِه السوداء ، ولُفافةُ التبغِ تنفث دخاناً يمور عند تخوم السقف :

_ " أين كنت ؟" هتفَ بي ناهضاً " ظننتُكَ همتَ مجنوناً .

_ " لن تموت أمّي . لقد جاء معي ؛ إنّه ينتظر . "

_ " مَن ؟ ! "

_ " الطبيب ."

لم أفهم لماذا لم يهبَّ لاستقبالَه . وحينما دلفَ الرجلُ المنقذُ واقتربَ من بابِ الغرفة اعترضه .. قال الطبيب في استقراء نظرات أبي : " يجبُ فحصها سريعاً فهي في خطر . " . تجهّمَ وجهُ أبي واستدارَ داخلاً الغرفة .. وقف إزاء أمّي المنهكة :" هل تريدين أن يتفحصكِ رجلٌ غريب فأصيرُ عاراً وعلكةً تمضغها الأفواه ؟! " .. كانت أمّي أتعبَ من أنْ تجيب ، لكنَّ المرأةَ الجالسةَ عند رأسِها هي التي قالت : " الطبيب كرجل الدين ، مثل الملائكة أعمالُهم لا يرقى إليها الشك ، ولا هيَ مَجلبة للعار . تعوَّذ بالله يا رجل ودعه يدخل . " .. رمقَ المرأةَ بنظراتٍ حازمةٍ واستدار خارجاً .. إزاء الطبيب قال بجفاءٍ : أفضّلها تموت على أنْ لا تمسّها يدُ غريب . أعرافُنا لا تسمح بذلك يا دكتور . تفضّل نعمل لكَ شاياً ونعدُّ فراشاً للنوم إذا رغبت . " . ارتميتُ على يده أُقبّلها ؛ بكيتُ . تناثرت دموعي على ظاهرِ كفّه . دفعني كالغريب وخطا .(لم أرَ رجلاً أقسى قلباً وأجهلَ معرفةً وأبعدَ ديناً كهذا . أي جحود هذا الذي يمسخُ الإنسانيةَ من أجلِ أهراماتٍ من أعرافٍ صفرٍ متوارَثة !!) ، قالها الطبيب كأنّه يحدّث نفسه ، أو ربّما كان يخاطبني .. أسيرُ إلى جانبه صامتاً . أفكارٌ سود تعصف في داخلي ؛ وأسئلةٌ تغرز حرابَها في رأسي : ألهذا الحد يرتكبُ أبي هذا الفعل المريع ؟ ألهذا الحد يرفضُ أن تُعالج أمّي وهو أدرى بنقائِها وصفاءِ عفّتها ؟! . لماذا ارتكبَ كل ذلك ؟ لماذا .. لماذا ؟! "

لم يسحبني من هوجِ التخيّلات القاتمة سوى صوتُ الطبيب :" دعنا ندفع الزورق إلى الماء " .. دفعناه .. نعم دفعناه . وما كُدنا ندرُك الضفةَ الثانية حتى نقلت الريحُ القادمةُ من خلفِنا صراخاً حادّاً آتٍ من ما وراء البستان .

****

في لُجّة الذكرى وتواليها يتوهجُ وجُه أمّي .. الشمسُ المنتفضةُ تلفح خدّيها ؛ والشمسُ نفسها تلفحُ خدّيِّ لكنّها تصيح بي أنْ ألوذَ تحت فيءِ شجرة توت بينما هي تقطعُ العرد والعاقول ، وتجمعه أكواماً . وحينما نعود ، وحيثما ترميه قرب التنّور تصعقني قطراتُ الدمِ الناضحة بعد كلِّ شوكةٍ تستلّها من يديها . أحزن لأنَّ أمّي ستتألم . ستموت أمّي لو انغرزت أشواكُ الكومةِ الكبيرةِ في جسدها .. ولكن آه ؛ لقد ماتت أمّي . وخزتها أشواكُ الأرضِ جميعها .. أجل / كلاّ .. أشواكُ الأرض أهونُ عليها من أشواكِ أبي . لم يغرزها في جسدِها ، بل مزّق روحَها ونثرها هباءً بكلِّ إصرار . ينتابني فزعٌ قاهر الآن . أرى وجَه أبي يستعير ملامحَ الجلاّدين العتاة ، وكفّاه قبضتان فولاذيّتان تنقضّان على رقبةِ أمّي السمراء لتستلبَ منها ما يحرصُ الآخرون عليه بكلِّ ما يملكون . مِنجلٌ يحصد سنواتٍ لم تبلغ الأربعين .. أربعون يوماً وأنا أبكي ، وأختاي تبكيان ، وأنتَ تضمّنا إلى صدرِك . تنتحب ، ثم

تكابر ، تحبس دمعَك ، تطمر ندمَك .. توقّفتُ عند حافةِ الشريط الرملي . كان الزورق في امتدادِ الأرض مثل شقٍّ غائرٍ يفتحُ شدقيه لابتلاعِ مَن يقترب . لا أدري لماذا أراك مُلقى فيه ويداك تلوّحان : أغيثوني إنّي أغرق ، أحترق ، أغوص .. شاهدتُكَ متقرفصاً تارةً ، ومنكفئاً أخرى . وشاهدت ذلك العذاب المحفور على مسامات جبهتكَ وخدّيكَ . وفي العينين صورةُ القهرِ الذي لا يزول ، والتشقّعُ الذي لا يُقبل ، والدموعُ التي لا تجف ؛ وصوتٌ مدوٍّ لا أدري هل هو آتٍ من جوفِ الشقِّ الذي تقترب حافاتُه كما لو كانت ستنطبق بعد حين ، أم من اصطفاقِ منافذَ روحي الحزينة على ضياعِ أمّي ؟! .. صدى أسمعه يقول : تجرّع من نفسِ ما شربت تلك النقيّة .. ذُقْ وتشمّم ، واغترف من دفقِ الألمِ والعذابِ والموت .، وأجدني أبغي مصمماً العودةَ من حيثُ أتيت لأُشفي سقمَ هذا النابت في صدري ، المُبتلى بمرضِ الحقدِ وأصداءِ المعذبين ، المقهورين الذين رحلوا مستلبي الحقوق مُكممّي الأفواه ، مذبوحين من الوريد إلى الوريد كي ما يبقى الآخرون / المتشفّون يشربونها تُرّعاً ودهاقاً .. أنتَ تستنشقُ الهواء ، وأنا وأختاي نغترف الهمَّ والحزنَ والشقاء . وأمّي !! أمّي ، ملامحُ لا تضببّها الأيام (الجنّة تحت أقدام الأمهات) . أراها هناك عند جدولٍ خضيب ، تحت وارفاتِ الشجر : تينٌ وزيتونٌ وماءٌ سلسبيل وأقداحُ ديمومةٍ وهناءٍ أبدي ؛ وأنتَ في خواءِ الدنيا ، جنّةَ المخدوعين : عبيدو المال / محبّو الجاه / متبلدو العقول ، سليلو الأعراف المتعفّنة الخاوية .. نعم سأعود .. سأعود ، وليمُت

******

إلى أين تدفع خطاك أيها المتّشحُ بالغضب / الموهومُ بالتطيّر . لو انكفأت ستكتشف نفسَك في تلك البركة الضَّحِلة من الذنوبِ والخطايا والضياع . ذات البركة التي خاضَ فيها أبوك وجدُّك وأسلافُك دون هدى .. انحرف عنها . اتركها جانباً . أزحْ من صدرِك غماماتِ الظلمة واجعلها بؤرةَ نورٍ تبعث إشعاعاً وضّاءً . أنتَ الشهمُ الصابرُ الواثق . لقد قطعتَ الكثيرَ فلا تتكفىء .. عُد إلى زورقِك ، زورق اليقين والقرار السابح صوبَ مجرّات السماحةِ والعفوِ والحكمة . ادفعه إلى عرضِ النهر واجذف . إنّ أصواتَ احتفائيةً من جموعٍ لا تُحصى تحتشدُ عند بوابةِ المستقبل قادمةً تحييك ؛ وعيوناً ترهص حدقاتُها بتطلعاتٍ أكثر إشراقاً تصبو إليك ؛ وأرواحاً تمور بالحياةِ الطريّة الغضّةِ تتأمل فيك الانعتاقَ من رداءِ البُلى .. جميع هؤلاء يباركون فيك اندفاعَك ؛ يشاركونك أنفاسَك اللاهثة ؛ يشدّون على يدِك مع كلِّ ضربةِ مجداف .. اجذف ، واجذف حتّى تُدرك الضفةَ التالية ؛ عندها اركن زورقَك واعتلي حافةَ الروف ، ثم تطلّع ستجد مصباحاً يسكبَ ضوءَ أصفر على لافتةٍ مستطيلة ، وثمّةَ ضوءٌ مبهجٌ يجسدُ صورةَ الأملِ يأتيك من وراء نافذةٍ مسدلةِ الأستار ... وهناك في الأفق البعيد سيطالعُك مخاضُ هالةٍ فضيّة تُبرز هامةَ قرصٍ بلون الثلج .

حزيران / يونيو 1994

السماوة

بقايـا حُلـم

يقفُ الباصُ الخشبي في المرآب الصغير المحاط بأسلاكٍ مشبّكة وسطَ هجيرٍ لافح بينما تتحرك العيونُ في متابعة مستمرّةٍ تبتدئُ به وتنتهي بالمقهى المرتكن في طرف الشارع حيث السائقُ باستلقائِه على تختٍ خشبي يسرق لحظاتِ نومٍ يسيرة من قيلولة هذا اليوم الحزيراني .. تلك العيون لنسوةٍ يلُذنَ بظلِّ دكاكينٍ مغلقةٍ وقد تكوَّمت أمامهنَّ صررٌ حوت ما تبضّعنَ من سوقِ المدينة . هؤلاء النسوة ضجرات / ملولات / صامتات على غير عادتهن ، يستلبهنَّ ثقلُ الانتظارِ وتضرب وجوههنَّ سياطُ الهواءِ اللاهب . أكثرهنَّ ضجراً تلك التي تجلس على يمينهنَّ بصرَّتِها الصغيرة وولدها الصبي . هذا الولد أسمه أحمد ؛ وأحمد يلتصقُ بها كما لو أنَّ أحداً سيختطفه منها أو يسلبها منه .. له الحقُّ في ذلك ؛ فالذي حدثَ لهما هذا الصباح يجعله في حِلٍّ من الطمأنينة ، ويخلِّف في نفسِه شعوراً بالخوف .. لذا كان بين لحظة وأخرى يتطلع في أشياءٍ ثلاثة : الباص المتوقف ، والسائق المستلقي ، ووجه أمه . هو يُحسُّ بهيمنةِ العطشِ ويريدُ إخمادَ النار المشتعلة في جوفه ، لكنه لن يفعلها ثانيةً ويطلب الماء . فقد يكون ثمّة موقفٌ آخر يتربَّص لهما . لقد تهاوت أحلامٌ نمت كثيراً في مخيّلته وشاء لها أن تُصار على أرضِ الواقع . بيدَ أنَّها صيرورةٌ كلَّفته الكثيرَ من الدموع والأسى والقلق .. دسَّ وجهَه في حجرِ أمِّه لعلَّه يُبعد الصور الرمادية التي توالت طافيةً على سطح ذاكرتِه ، ولم يجد لها فِكاكاً . مسّدت الأمُّ شعرَه بحنوٍّ وضمَّته إليها أكثر ، فأحسَّ بها تتغلغل في مسالِك روحِه الجزعة لتجتثَّ بعضَ ما يؤسّيه .. سمعها تهمسُ في أذنه : لن يطول بقاؤنا . بعد قليل سيأخذُنا الباص إلى القرية . لا بد أنَّ فاطمة وزينب وناصر بانتظارنا .

****

طالَ الليلُ ، والكلُّ نيامٌ : أبوكَ وأمُّك وأخوك الصغير وكذلك أختاك ؛ إلا أنت كنت عيناً صاحيةً وأحاسيسَ لا تنام . وكان الليلُ معتماً ، وأصواتٌ تحملها أجنحةُ النسائم الباردة مخترقةً السكون المضروب على القرية . بعضُ هذه الأصوات نباحُ كلابٍ ، ونقيقُ ضفادعٍ ، وصياحَ ديكة (صيحةُ الديكةِ الأولى انتهت. فقلتَ في نفسِك إنَّ مَن انتظرتْ بعلَها كي يعيدها من زعَلها قد خاب ظنها ، فلن يأتي بعد الآن . وحين صاحت الديكةُ ذاتها ثانيةً في هزيعِ الليلِ الأخير قلتَ لقد انصرفَ الليلُ وها نحن على أعتابِ صبحٍ جديد) . صرفتَ الساعات الماضية مُبحراً في رؤىً وتخيلاتٍ متزاحمةً مُستعيداً كلاماً توالدَ على شفتي أمِّكَ المبتسمة وهي تزفُّ خبرَ اصطحابِك معها إلى المدينة صباحاً .. غَسَلت ثوبَك الوحيد ، ونشرَته بمواجهةِ الشمس على شجيرةٍ من صفِّ شجيراتِ الرمان الناهضة خلف الدار بينما مكثت عارٍ تحتمي بالجدار ، مُحترِساً خشية أن يلمحَكَ أحدٌ من أقرانِك فيسخر منك .

****

هدر محركُ الباص بعد أنْ صعدَ فتىً تلقّى أمراً من السائق الذي نهض من نومه لاعناً الحرَّ والذبابَ اللذين تناهشاه وأقضّا نومه .. بدرت هنّات وهمهمات من جوقةِ النسوة المنكمشة بانكماشِ الفيء .. نهضنَ تُساعد إحداهُنَّ الأخرى في وضعِ الصرر على الرؤوس ، وتسرَّبن متفرقات نحو الباص . وهناك من جوف المقهى نهضَ الرجالُ المنتظرون . ارتدى بعضُهم "ستراً " كانت مرمية على مساند التخوت الخشبية غير آبهين لعواقبِ الحر الذي ينتظرهم داخل الباص ، تحركوا خلف آخرين سبقوهم للحصول على مقاعدَ مناسبةٍ . ولكن أحمد سبق الجميع واقتعد مكاناً مجاوراً للنافذةِ فيما حجزَ آخرٌ لأمه .. وكان ينتظر الحركةَ .

****

يتحرك الباصُ الخشبي على الطريق الترابي وتجد نفسَك على أعتابِ حُلمٍ يتحقَّق . سترى ما ترى في المدينة : الشوارع العريضة المعبدة ، السيارات المارقة التي لا توقفها سوى إشارات ضوئية تبثّها عيونٌ سحرية يحدِّقُ فيها السائق بانتباه قبل البدء بانطلاقته الجديدة ، بنايات عالية تنهض ، بيوت ذات جدران تلتمع ، دكاكين كثيرة لا تمُت لدكاكين القرية البائسة .

_ تركنا أخاك ناصر يبكي . قلبي عليه .

هكذا تقولُ أمك بحسرة ، فتجيبُها بأنَّ المرةَ القادمة ستكون له . ثم تصمت ، وترى الصمتَ على وجوهِ الرجال وتسمع بسملاتٍ تتفوه بها عجائزُ مسنّات . وعندما رفعتَ بصرَك وقعت نظراتك على وجِه أمّك .. امتلأت عيناك بملامح أعجبَك فيها العينان السوداوان ، المحفوفتان بأهدابٍ نافرة ، الحاجبان المعقودان ، الخدّان الطريان ، الشفتان الحمراوان ، اللامعتان . هتف الذي في داخلك " ما أجملُك يا أمي ! ". قالت أمُّك وهي تتملاّك بلهفةٍ " إذا بقي لنا وقتٌ سنزور خالتَك في المدينة . تسألها مُستفسراً : لماذا لا يكون بيتنا هناك ؟ فترد " زوجُ خالتِك يعملُ عند الحكومة ، والحكومة لا تريده بعيداً عنها ؟. " . تصمتْ تستدير مولياً وجهك شطرَ النافذة تحدِّث نفسَك : كم أحسدكم يا أبناء خالتي ؟

******

صعد السائقُ من بابٍ جانبي ، وانتظرَ إيعازاً من الفتى الذي كان نصفُه الأعلى يتدلّى من بابِ الباص الوسطى مُستطلعاً الشارعَ للمرَّةِ الأخيرة .. علتْ فورةُ غبارٍ لحظة استدارة الباص واتخاذِه درباً يوصلُه إلى الطريق المعبَّد . اندفع الهواءُ ساخناً إلى جوف السيارة فاستنشقه الركابُ المحشورون كفراخِ دجاجٍ بتقبُّلٍ ورضاء . أفردت عجوزُ عباءتها " هواؤك يا رب " . همسَت تحدِّثُ طفلةً انحشرت بينها وبين عجوزٍ أخرى : " انهضي يا صغيرتي . دعي الهواءَ يلعبُ بجديلتيك ، ويجفف العرق من رقبتك " . جفَّفَ أحمد آخرَ دمعةٍ انسكبت على خدِّه

واستبدلَها بابتسامةٍ زرعها على وجهِه وهو يطالع وجهَ أمه ، متسائلاً إنْ كانت في توقٍ لنواصي القرية ودروبِها ؟ " أيعقل أن نجد أعشاشاً أجملَ من أعشاشِنا التي هناك ؟! " .. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى صار الباص يزيد من سرعته ثم ينحرف سالكاً درباً ترابياً عرفه أحمد سريعاً فقال في سرِّه هذا هو الدرب الذي جئنا فيه هذا الصباح ..

التفتَ ليلقي آخر نظرة على ما يُشير إلى المدينة ..

******

كان مدخلُ المدينة جميلاً بحق . وكلَّما تلقَّف الباصُ شارعاً زادت حفاوةُ الإعجابِ في روحِك المتشوِّقة .. فرحتَ وأنت ترى الشريطَ الأخضرَ المُتَّسِق الممتد مع امتدادِ الطريق ، وفرحتَ وأنتَ ترى السيارات الصغيرةِ اللامعة تمرقُ مسرعة ، وهتفتَ بجذلٍ " ياه " عندما فاجأت عينيك قامةُ امرأةٍ سافرةِ الرأس زاهيةَ الملبس " لقد نسيتْ هذه المرأة عباءتَها في البيت ولم تنتبه لنفسها " هكذا فسَّرتَ ذلك . لكنَّك بعد قليلٍ شاهدتَ الصورة تتكرر. صُرنَ كُثراً ، يضرِبن رصيفَ الشارعِ بأقدامٍ واثقةٍ وأجسامٍ منتصبة . وحين توقَّفَ الباصُ وغادره الركابُ متفرقين أمسكت أمُّك يدَك بشدَّةٍ خِشيةَ أن تفلت من يدِها وتضيع .. سلكتما درباً قادكما إلى السوق فوجدتماه على أشُدّه ... الأصوات تتعالى والموسيقى إيقاعات منغَّمةٌ في أماكنَ متنوعة ، يتشرّبها فضاءُ السوق . إنَّ كلَّ شيءٍ يبدو غريباً لديك . مشهدٌ لم ترهُ من قبل .. ثمَّة تباينٌ كبير مع أجواءِ قريتك ، ومن العسيرِ لعينيكَ متابعة التفاصيل أجمعها ، فالماثلُ أمامَك ليس بحجمِ تخيلاتِك التي حشدتها في حيّزٍ من ذاكرتِك . ذلك الحيّز تكتشفه الآن محدوداً / قاصراً . لهذا اقرعْ طبولَ دهشتِك ، وانثر أحلامَك في فضاءِ التحليق البعيد واغترفْ أكثر فأكثر .. دَعْ عصافيرَ الروح تأخذ حقّها فتمتلئ دون مواربةٍ من النزق ومناهلَ الحبورِ لتغذّي أعشاشَها بدفءِ الرغبات الناجزة . الأنوارُ تكتسحُ فضاءَ السوق ؛ ووميضٌ صاخبٌ تفجّره مصابيحُ اتخذَت أشكالاً كروية / أسطوانية / مكعبة أو صورة سنبلة نافرة أو نخلة فارعة أو هيكل دبٍّ منتصب أو حصان واثب .. تطرق مسمعَك أغانٍ صادحةٌ لمغنّين لم تسمعهم سابقاً . تسرقُك أنغامُها فتسقيكَ دفقاً من الهيام تُطرب لها روحُك الفتيّة ؛ ثم تأتي أخرى فتلطمُ أذنيك بدوّامة النشاز ، ويستفزّك عواؤها تحاول غلقهما بيديك تجنّباً وابتعاداً . غير أنَّ أنغاماً جديدة _ هي الأمتع والأشهى _ تنبثقُ من أعماقِ الروح ، تعلو وتهمي رذاذاً وعذوبةً يبتهج القلبُ وتهفو النفسُ ؛ تستمرُّ صاعدةً في فضاء تحليقها السحري ... في هذا المشهد الغريب الذي يجمع التطلّع / الاستماع / الدهشة / التساؤلات امتدّت يدٌ مررَّت باطن كفّها على رموشك فكحَّلتها برؤى مهاجرة من بحيرات عوالم عُليا . وشممّتَ رائحةً تعبقُ بأريجٍ ملائكي غريب ، له هيمنةُ وسطوةُ التخدير .. ساحت روحُك على أكفِّ عينيك تتابع ما معروض وراء واجهات زجاجيّة لمحلاّت مقدِّماتها تسكبُ شلالاتٍ ضوئيةً من مصابيحَ عليا . ومن صفٍّ آخر تسقطُ أشرطةٌ متوهجة / راعشة على بدلات فُصِّلت لتناسب أعماراً وأحجاماً تُقارب سنّك وقامتك ، عُلِّقت على جدار فلّيني وثَبِّتت بدبابيس لامعة

الرؤوس . مددتَ يدَك مخترقةً الزجاج . بدا الزجاجُ ستاراً من هواء . تناولتَ بدلةً بلونِ الرغبةِ المتأججّة فيك . وبومضةِ حُلمٍ أو اغماض عين رأيتَ إلى نفسك . ألفيت قوامَك ومظهرَك يستعير صورةَ البهاءِ والترف . خطفت أنظارَكَ قواريرُ عطرٍ لها هياكل كائنات حيّوانية حملها لوحٌ زجاجي شفّاف .. رفعتَ واحدةً هي بهيئة فيل . ضغطتَ بإبهامك على رأسه فنثَّ خرطومُه الكريستالي رذاذاً بارداً داعب وجهَك المعروق فانتعش ؛ وسرت قشعريرة استباحت أوصالَك فابتسمتَ . ردَّ ابتسامتَك وجهٌ من زاويةِ المعرض . لمحته بطرفِ عينيك .. وحين استدرت تحدّق فيه مدهوشاً ومفتتناً . أمام واجهة مزججّة تالية ألقت عيناك مراسيها على تشكيلات أحذية وأخفاف وصنادل صنِّعت من جلودٍ طريّة وأخرى من الكتّان الناصع . طرازات مثيرة وألوان جذّابة ما أن تستقر العينُ على إحداها حتى تكتشف إن ما يليها أفضل وأجمل . ترمي نعليكَ المطاطيين المُتربين وتأخذ زوجَ حذاءٍ جلدي . تدسُّ قدميك فيكتمل مظهرُ الفتى سيد الأناقة وانموذج العرض .. تدور حول نفسك مرّاتٍ مرحاً / مختالاً . ترفع يديك كأنك ستطير . يُصاحب ذلك توقّف حركة الناس فتنشدُّ العيون تُطالعك . تدور حوارات هامسة وأخرى مسموعة : " كم يبدو هذا الفتى القروي جميلاً !! " " آه .. ؛ من أينَ له كل هذا الجمال ؟! " " في القرى يولدُ الجمالُ نقيّاً " . تدور حولك فتياتٌ يقاربنك العمر ، ذوات شعور سود وشقر ، تؤطِّر رؤوسهنَّ أطواقٌ من زهورِ الياسمين ، يحملنَ أطباقاً نُسِّقت فيها شموعٌ تعجُّ ذُبالاتها بأنوارٍ متراقصة وأوراق ٍ " آسٍ " غمرَت السطح . تناثرت شقائقُ وزنابق وزهيرات رمّان حمراء .. كل ذلك يحصل لك وأنتَ تخطو فتزيد من دهشتِك معارضُ أشدّ جمالاً وأبهى صورة . تقف عند إحداها فتواجهُك مصوغاتٌ ذهبية تطفو على سحابة أنوار مُبهرة تنبعث من جوف قاعدة _ موّهتها أغلفة ٌ ملوّنة _ لهيكل المعرض الزاحف قليلاً إلى الخارج ، فيما تنثال أنوارٌ راعشة / متوهِّجة تتدفع من زوايا المعرض العليا . أمّا في داخل ذلك الذي يُسمّى دكاناً أم جنّةً أم مهرجاناً ترمُق جدراناً تضمُّ مزججّاتٍ مستطيلة ذات بطانة من قطيفةٍ طُحلبية اللون عُرضت عليها : قلائد وأقراط وجناجل ومعاضد وخواتم تباينت نقوشها وتنوِّع لون وحجم الشذر المزروع في نتوءاتها .. تدلف إلى هناك وتتوقّف مُتابعاً المعروضات بانتباه . تتناول خاتماً بشذرةٍ حمراء لامعة . تدسُّ بنصرك الدقيق فيه وتتمعّنه بإعجاب ؛ ثم تلتقط من مزججّاتٍ مجاورة ما تكتشفه لائقاً / محبباً . تقول هاتان القلادتان لأختيَّ فاطمة وزينب ؛ وهذا الخاتم لأخي الصغير ناصر ؛ وهذا الطوق والأقراط والأساور لأمّي . أما لأبي فأفضِّل لبسَ هذا الخاتم الفضّي الخالص بشذرته اليمانيّة الزرقاء فأبي متدّين يرفض أي معدنٍ لامعٍ يطوّق أصابعه .. تجمع كل هذه الحلي في يدك ثم تضمّها في جيبك وتخرج .. تتمثّل حركة الناس داخل السوق في أوج نشاطها .. محلاّت تعرض مقدِّماتها بضائع شتّى ، عيون أصحابها متحفِّزةً وألسنتهم تلوكُ أسماءَ المعروضات واحدةً بعد واحدة : قمّاشون وخيّاطون وعطّارون .. باعةُ كتب وصحف ومجلات .. باعةُ لوازمَ شخصيّة .. مناديل وأمشاط وفرش : فرش أسنان / فرش تصفيف الشعر / فرش تلميع الأحذية .. ملاقط وأصباغ ودهون ودبابيس .. باعة متجوّلون يدفعون عربات تمتلئ بمعجّنات وحلويات . تهفو نفسك وتريد لكنّها تعف .. تروحُ تتابعُ تحت سطوةِ الرغبة في التملّي والاكتشاف .. هل لك أنْ تعُبَّ كلَّ ذلك في حضورٍ واحد؟ هل بإمكانك أن تنهل كل ما تراه ؟! ... لو قُدِّرَ لك فعلَ ذلك لفعلتَ ؛ لكنكَ على يقين من أنّه لن يتأتى مرةً واحدةً . إنَّ للعينِ مدىً محدود ؛ وللقلب مُتّسع مُقدَّر . والأماني مهما اتخذت لها

من مفازات ومديات فلن تجد لها قَدَراً يُرسيها كاملةً على مرافيء التحقيق الناجز .. وها أنتَ تنأى . تنأى بعيداً ؛؛ ولخيالِك الحقُّ في ركوبِ جناح الانعتاق من قيود الواقع ؛ لكنك تشعر أنَّ حبالاً تجرُّك من فضائك المُحلِّق في سديمه . وكلما هربت أو سعيتَ للتخلّص من أسرِها ازدادت قوّتُها واشتدّت خيوطُها .. ذلك يجعل قواكَ تضعف بالتأكيد ، ثم تخور فُيسرع تنفّسُكَ ويزداد نبضك ، وتحس بالعطش مُحرقاً / لاهباً له سطوة الجلاد وجبروته .. عطشٌ يشتد ويهيمن حتى يُدخِلُك دائرةَ اللهاث . هذا اللهاث هو الذي يسحبُك بعنف . لا رجاء / لا تشبّث / لا تذلل ينفع في إدامة التحليق .. ومثلما رفعتكَ يدُ الدهشة إلى سديم الحُلم تجرُّكَ يدُ العطشِ إلى أديم اللحظة فيتبدد كلُّ شيء ويزول ؛ وتشعر أنِّ سببَ العودةِ هذا الاكتظاظ المتوالد من سخونةِ الهواء وازدحام المتسوّقين المنشغلين بالحملقةِ والتعامل والشراء ، وتصحو على يدٍ قوية تقبضُ بيدك خوفاً من أن يأخذُ بك الزحامُ وتنفصل عن صاحبتها التي تراها الآن وكأنك تكتشفها لأول مرّة . " أمّي .. أمّي " . تهزُّ يدَها ، تسحبها ربّما من حُلمٍ كانت سادرةً فيه . تُسمعها همسَك الخجول : " أنا عطشان ! " . إنها لحظات الانكفاء والتقهقر واستلاب متعةِ البحث والتطلّع اللتين يشغلان أمّك في شراء حاجيات جئتما من أجلها . إنّكَ تُثقلها بطلبِك وتضطرّها للتطلّع في ما حولكما ثم تنحني إليك وتقول أننا شارفنا على نهاية السوق ، سأطلب لك الماء حال خروجنا . " لو كنتَ ما تزال فوقَ كفِّ الدهشة لشربت ماء دجلةَ والفرات وأكملتَ حاجة التروّي . " .. وتلمح بعينيك الحزينة على ضياعِ الحلم خاناً . باباه العريضتان مشرعتان . وتبصر كوزَ ماءٍ هناك في داخله . تنخز خاصرةَ أمّك ، تُريها إيّاه . تدلفان . تُلقي هي تحيةً ريفية على رجلٍ أسبغت عليه سنواتُه الخمسون وقاراً واتزاناً ، يجلس خلفَ منضدةٍ عريضةٍ تعلوها أوراقٌ وسجلات منضَّدة ومصباحُ مكتب مُضاء . ابتسم الرجلُ ابتسامةً عريضة ونهض .. خطوتَ مُسرعاً نحو الكوز لتُنهي سطوةَ الظمأ في جوفِك المحترق . توغل يدَك في الكوز . تملأ " طاسة " ، تكرعها سريعاً . لا يُحسسّكَ امتلاؤها بالارتواء .. تذكّرتَ إنّكَ وأمّك لم تشربا الماء منذ غادرتما القرية . هممتَ بملأ الطاسة مجدداً كي تقدّمها إليها ؛ غير أنك لم تجدها إلى جانبك . التفتَّ . أبصرتَ الرجل الوقور يكلّمها باهتمام مُبالغٍ به ، طالباً منها الدخول إلى مكتبِه فيما هي تشكره بخجلٍ وامتنان ريفي . كان المشهدُ عاديّاً لديك . ملأتَ " الطاسة " ثانيةً وشربت .. نزَّ عرقٌ حثيثٌ على جسدِك وشعرت أنّ بطنَك سينفجر . تطلّعتَ إلى أمّك فلم تجدها . ساورك ظنُّ أنها ربّما سبقتك للخروج . خطوتَ مسرعاً . اقتربتَ من بابِ المكتب وكنتَ على وشكِ اجتيازه لولا الصرخة المفزعة ، وكلمات الاستغاثة المنبعثة من هناك .. سقطت بقايا الصورِ العالقة في ذاكرتك ؛ احترقت ذيولُ الأنوار وتشظّت الألوان فاستحالت جميعها جحيماً وسهاماً ساخنة تنغرز نصالها في نقائكَ المُنتهَك . لمحتَ الرجلَ الوقورَ متخلّياً عن قِناعه ، متشبثاً برعونةٍ واستهتار بذراعي أمّك . وأمّكَ تجاهد محاولةً الابتعاد . ورأيتَ أيضاً كيف هجمَ عليها بغريزةِ وحشٍ هائج ؛ وهي بكبرياءِ القريةِ ونقاءِ الزروعِ ودفقِ السواقي تُدافع عن عفّتِها مستغيثةً ، مستنجدة .. هرعتَ إليها إذْ امتلأتَ حنقاً وحقداً . رفعتَ مكعّباً أسودَ يستوي على سطح المنضدة . لا تدري إنْ كان حجراً أم زجاجاً أج خنجراً . وبكل ما اختزنَ ساعدك الصغير من قوّةٍ هويت بها على جبهته ، فتعالت بغتةً أنّة مكتومة انبثقت إثرها نافورةٌ تتدفق سائلَ أحمر ؛ تقاطرَ على وجهه فلوثّه .. بهتت أمّكَ لما فعلت . اكتسحها طوفانُ صدمةٍ لا تُصدَّق . " لا بدَّ أنَّ فعلتَكَ أثلجت قلبها المُحاصر . " . سحبتكَ على

عجلٍ وخرجت ... كانت دمعتان كحبّتي لؤلؤ تطفوان في حدقتيك ؛ ما لبثتا أن ارتعشتا وانسابتا فوق خديك ، مسحتهما أمُّكَ بطرفِ أصابعها ، وهي تقول : " ها قد صرنا على مشارف القرية ؛ إنّي ألمح فاطمة وزينب وناصر . إنّهم بانتظارنا .

أيلول / سبتمبر 1992

السماوة

الوبـاء

_ لقد حلّوا هنا .

هكذا نزل الخبر كبيراً ، مهولاً ، صاعقاً ؛ فسرى تيّارُه بسرعةِ البرق .. هيأ البعضُ البنادقَ الملفوفة بخرقٍ نضحت ببقعِ الزيت ؛ واستلَّ آخرون خناجرَ كانوا يخفونها تحت أفرشتِهم ، فيما صممَّ آخرون على استخدامِ المناجل كوسيلةٍ هجوميةٍ لا يُستهان بها .. النسوةُ احمرّت وجوهُهنَّ احتقاناً ، وسكبت عيونُهن شرراً وهنَّ يتمتمنَ ويتصايحن : لا يمكن أنْ يحدث هذا حتى لو طلّقنا الرجال أو صرنا أراملَ .

- في الديوان أطلقَ شيخُ العشيرة يؤيده الكثيرون تهديداً مزبداً ، راعداً ، صارخاً : أنَّ عشيرتَنا في خطر .
- في المدرسةِ عقد المديرُ اجتماعاً مع هيئته التعليمية ، وأعطى لاجتماعِه عنوان " الوباء " .
- وفي مكتبهِ أحسَّ مديرُ الناحيةِ بأنه إزاء موقفٍ لم يدُر بخلده أنْ سيحصل يوماً .

أمّا نحنُ الفتيةَ الصغار فقد ألفينا أنفسنا في زاويةِ تصوُّرٍ حرجة ؛ مأسورين محاصرين . خصوصاً وقد ترددّت كلمة " وباء " كثيراً في مدرستنا ، وسقطت على مسامِعنا كالرصاص الثقيل من أفواه معلمينا .. داهمتنا شتّى الصور الدامية المرعبة .. خُيّلَ لنا أننا واقعون في بُركٍ لا قرار لها ، ستأخذنا أعماقُها البعيدة بعيداً فنغوصُ في غياهب الخطر الداجي ، أو محاطون وسط أتونٍ لاهبٍ لنار لاحدود لها وليس لنا سوى انتظار النهاية المتجبّرة ، أو أنَّ مرضاً ينفث مخلوقاتٍ متناهيةَ الصِّغر ، سارية مع الهواء وبالتأكيد ستكون رئاتُنا مُجبرةً على أن تصبح بؤراً أو مكامنَ لها .

لقد تغيّرت معالم القرية فجأة .. فالحقول التي تعج كلَّ صباح بأهلينا من الفلاحين رأيناها خالية . وسوق القرية الذي يخلو في هذا الوقت من الضحى صار يمور بخطى الرجال الغاضبين الموتورين ، يلتقون حلقات ، ثم تنفرط لتتشكّل حلقات أُخر . صار مدخل المركز يحتشد بالمجتمعين بانتظار خروج مدير الناحية لتدارس وتدارك الأمر . لن تُعطى لهذا الوباء ضريبة البقاء .. ساعات ثقيلة صرمناها واقعين تحت هيمنة الحيرة واتخاذ القرار. (وهل لنا قرار نحن الذين لم نفقه سر هذا الارتباك وفقدان التوازن وسط هياج كالدخان يُعلن سطوته فوق سماء قريتنا ؟!) .. قيل انهم الغجر .مفردة لم نسمع بها من قبل . حتى أنَّ ألسنتنا استهلكت الكثير من الوقت كي تتمكن من لفظ الأحرف الثلاثة المتنافرة : غ غ ج ج ررر .. تساءلنا والحيرة الطافحة على وجوهنا تثير مَن نستفهمه السخرية منّا أو ربّما التأسي علينا : أليسوا هُم " معدانا " جُدد اتّخذوا ذلك المكان(1) ؟! .. وجاءنا الجواب : كلاّ .. كلاّ . فعلمنا أنَّ للغجرِ مهنةٌ غريبة هي في الأساس الرقص . هذا العمل الشائن المريع حيث

عرفنا ممّن كلّمونا أنَّ من يمارسه ناقص الحياء ، فاقد الكرامة ، وطيء الشأن .. رقصٌ تمارسه النساء ، فيما رجالهنَّ تضرب لهنَّ على الدفوف وتنقر على الطبلات وتمرر الأوتار المشدودة على ربابة مصنوعة من صفيحة وقود مستطيلة . أمّا المتفرجون وجلّهم يأتون من المدينة فهم سقطة القوم / شاربو الخمور / لاعبو القمار / شُذّاذ الآفاق .. وهؤلاء جميعاً في حلٍّ من الأخلاق . وما داموا هكذا فلا مندوحة من ممارسة أفعال شائنة قبيحة ، مستهجَنة أقلّها مضاجعتهم النساء الغجريات . لم نكن في توق واندفاع لملئ قلوبنا بالدماء السوداء ، وشحذ عقولنا بالحقد الطاعن عليهم لولا الأخبار التي شاعت سريعاً بيننا .. قال أحدنا أنّه سمع أمّه تتحدّث مع جارة لها عن ممارسة هؤلاء لفعل السرقة : أنّهم يخطفون البنات ليجعلوا منهنَّ راقصات ، داعرات عندما يكبرن (داهمتنا صور كابوسيّة كأنها تحدُث لأخواتنا فعلاً) ؛ ويسرقون الأولاد الصغار ليجعلوا منهم ضاربي دفوف ، وناقري طبلات (فتخيّلنا أنفسنا في ذلك المشهد الوضيع) ؛ أغمض كلٌّ منا عينيه كي يطرد ذيول التخيّلات العالقة في أذهاننا .

بعد صمتٍ تمطّت فيه اللحظات ، واستحالت الدقائق سلاحف عمياء تنوء بأرجل مهشّمة أطلَّ مدير الناحية فبان لنا قصيراً / ثخيناً / مترفاً / ذا وجه مدوَّر وخدّين حمراوين لم تلفحهما شمس ، ولم يمسسهما غبار . تكاد بدلته الحضرية وربطة العنق المتدلّية من رقبته تضيقان لفرط بدانته . مسح بعينين جوّالتين طافحتين بألسنة الشرر الجمع المحتشد . على يمينه وقف شيخ العشيرة محمّر الوجه ، يندفع كرشه المكوّر خارج جسده

بينما انتصب مدير مدرستنا على يساره وقد اخفت عدستا نظّارته السوداء عينيه المتّقدتين غضباً ... تحدّث المدير وتحدّث . تحركت يداه صعوداً وهبوطاً . انفرجت أصابعه وتشنّجت بحركات عصبية ، مُظهرةً عزمه الأكيد وتصميمه الذي لا يعرف التردد . أشهد شيخ العشيرة ؛ وأشار على مدير المدرسة . فراحت الرؤوس المحتشدة تهتز توافقاً واتّفاقاً بعد كل جملة مشحونة بالحماس والوعيد . هللّت الأفواه ؛ واستبشرت النفوس . سمعنا البعض يتفوّهون : رجلٌ بحق . وآخرون يواجه بعضهم البعض : ثقتنا بكلامهم كثقتنا بنسائنا .. وعاد الحشد منفرطاً ؛ وعادت النفوس راضية / مطمئِنة . ليست سوى أيام وستعود القرية كما كانت : بلا وباء ، ولا استنفار ، ولا أطياف كابوسية تعكّر ليل الصفاء .

غير أن القرية ظلّت تعيش حالة الترقب على الرغم من عودة الفلاحين لأعمالهم في الحقول . فالمضارب الآخذة لون جذوع النخيل التي نراها على البعد شاخصة مثل مثلثات هرمية مجسّمة كانت تبدو كأنها تعد العدّة للانقضاض على القرية واستباحتها .. وحين مرّت الأيام تتوالى خامر البعض شك في استمرار ذلك الحماس ، وتلك الفورة من الغضب لدى شيخ العشيرة ومدير المدرسة . أمّا مدير الناحية فلم يعد الكلام الحاد بشأنهم يصل منه . كل ما يصل إلينا هو خبر توجّه مفوّض شرطة المركز مبعوثاً منه إلى مضاربهم حاملاً أمر ترحيلهم الإجباري ثم عودته ليُعلم المدير بما لم نعرفه . والذي نعرفه هو ما ولّدَ التوجس والخشية من الأيام .. وجاء من يطمئن أهلنا : دعوهم يتصرفون بحلم الكبار العارفين ؛ فموقفٍ كهذا لا يجب النظر إليه بيسر .. أولئك قوم هذه مهنتهم ، وهذا عُرفهم وليس من الحكمة مواجهتهم بالعداء ؛ واليد القويّة لا تأخذ اليد الضعيفة بغفلة . فالمرونة

هي واحدة من أوجه الحكمة ولا بدَّ سيرحلون حالما ترسو أفكارهم على وجهةٍ يتّخذونها .. أويّد هذا الكلام بكلام آخر يقول : لماذا هذا الاكتئاب ؟ الكل مؤمنون ، والقرية تنام وتستيقظ مطمئنة / آمنة . لا سرقة ، لا اختطاف ، لا تعدّي .. (للحق نقول : لم نر أحداً منهم يطأ حدود القرية . فالشوارع ما برحت نظيفة من أقدامهم ؛ ومرايا البيوت / الجدران لم ترتسم عليها ملامح وجوههم المريبة . وأفياء النخيل لم تشهد حرارة أجسامهم وأنفاسهم اللاهثة بعدوى الوباء .) . وهكذا انبثق في صدور الناس يقين يُعلن عن فحواه : غيمة سوداء ، بقليل من الصبر وحفنة من الأيام ستتعدّى وترحل .(2) بينما ظلَّ هاجس الخوف يتسلق سفوح أذهاننا التي تأججت في شريط من صورٍ مُضببّة ، وأصوات غريبة مبهمة .. لكنَّ! هاجساً شرع ينمو ويكبر مُزيحاً كل ما يُعزى إلى الاستكانة أو الرضوخ . ذلك هو الذهاب إلى هناك حيث المضارب الآخذة لون جذوع النخيل .. ما ضرّنا لو تعرّفنا على أولئك الوافدين ، المُستهجَنين ؟ . تشاطرنا الرأي ونشرنا الأسئلة ، وجمعنا الاحتمالات . استثنى بعضهم المجيء بينما تحمّس له آخرون .. صرنا أربعة ، وقلنا بكلامٍ واحدٍ : سيكون لقاؤنا تحت شجرة التوت الكبيرة ، ما قبل "الروف" . وقلنا للآخرين انتظرونا عند مغيب الشمس سنكون قد عدنا لنعرض لكم شريط المشاهدات التي سحبتها عيوننا وألصقتها على جدران الذاكرة .. الوصول قد يبدو عسيراً ، لكنّا على أي حال سنصل ؛ سنتملّى وجوههم / خطاهم / أفعالهم .. لا ندري أن كانت ثمّة شارات على جباههم ، او على خدودهم مثلاً تفصح عن هويتهم كغجر !! . هل هم طوال أم متقزّمون ؟ ينطقون بلغتنا أم ألسنتهم تلوك لغة ثانية ؟ . قال أحدنا : ولماذا نبقى حيارى الأفكار ، فالساعات القليلة القادمة كفيلة بفض غشاء الألغاز المشتبكة في رؤوسنا .

ومثلما تسلّلنا ذات يوم وانحدرنا تاركين القرية والزروع في قيلولة ظهيرة خريفية ، متّخذين درباً يجعلنا غير منظورين من قبل " المعدان " السائحين بجواميسهم قرب النهر تحركنا هذه الظهيرة تحت شمس نيسان الدافئة . سرنا عبر درب تتعالى فيه الأرض تارةً وتنخفض أخرى فنضطر عند ارتفاعها إلى الانبطاح والزحف لئلاّ نُكتشَف فيُضرب حولنا طوق السرقة والاختطاف فيما نلتقط الأنفاس بعد تدحرجنا في المنخفضات فننفض عن ثيابنا الغبار ، ثم نروح صاعدين من جديد تسعفنا أحيانا بعض الأجمات الناهضة جاعلين منها ملاذات تبين من خلالها مواقعنا ، مخمّنينن المسافة المتبقيّة للاقتراب من خيامهم .. سرّنا أننا رأينا بعض الصغار من قرى بعيدة يقتربون بأغنامهم . فسّرنا ذلك على أنه فضول لا يختلف عن الفضول الطافح في نفوسنا .. خففَّ ذلك شيئاً من قلقٍ بداخلنا فيتركنا نكتشف ثقل خطواتنا ، وجفاف حلوقنا ، وتيبّس شفاهنا . حتى إذا اقتربنا وصرنا نميّز رجالاً نبصرهم مرتدين دشاديش بيضاً عن نساءٍ داخل ثياب طويلة ذات ألوان برّاقة فاقعة وهم يتنقلون من خيمة لخيمة .. تناهبتنا الهواجس ، وتفاقمت الأسئلة غير المحسوبة طافحة فوق أمواه قلقنا : ماذا سيفعلون بنا لحظة اكتشافهم لنا ؟ .. أنقول أننا رعاة ؟ سنُسأل : أين هي أغنامكم .. تائهون ؟ وهل يتيه أحد في أرضه ؟!.. فكرة استحسنها الجميع ألقى بها أحدنا . هي أن نختفي في أخدود أو خلف أجمّة لا يلمحنا معها أحد ؛ ثم نندفع واحداً تلو الآخر .. قال أكبرنا عمراً سأسبقكم إلى مكانٍ قريب منهم ، وحالما أكتشفه آمناً أومئ إليكم فتأتون تباعاً .. ساورتنا الخشية ، وسادنا الارتباك ونحن نبصره يقترب من الخيام . تساءلنا : ماذا لو انقضّوا عليه ؟ كيف السبيل لإنقاذه ؟ .. تداولنا في ذلك مراراً . قال أحدنا سأعود بلمحة بصر لأخبر أهلنا في القرية بينما تندفعون أنتم

لملاقاتهم وتحذيرهم بسوء المصير ووخمة العواقب إن مسّوه بأذى .. وفيما نحن نخوض في لُجج الاحتمالات والصور الرمادية طالعنا بإيماءةٍ من بعيد فاندفعنا حسبما خططّنا .. لكنَّ شيئاً ما ولّدَ دهشةً ، وبرزَّ قلقاً كان يفرض سطوته على أعطاف أذهاننا المشوّشة ، حين رأينا أعداداً كثيرة منهم لم نضعهم في الحسبان . رجال يتنقّلون من خيمةٍ لأخرى كما لو أنَّ أمراً غير اعتيادي يستدعي تفجير هذه الحركة الصاخبة . شاهدنا فتاة سمراء كحيلة العينين ، ضامرة الخدّين تخرج من خيمةٍ وتقف متطلّعة باهتمام لرجلين مسرعين يتداولان لحسم أمر يبدو جسيماً ، جليلاً لديهما . كما شاهدنا فتاة ثانية تقاربها عمراً تخطو باتجاهها . حتى إذا توقف إلى جانبها وأسقطت الشمس شيئاً من أشعتها الصفراء على وجهها الأسمر الداكن استطعنا تبيّن وشماً أخضر مزرقّاً ، نازلاً من خط الشفة السفلى حتى نقرة الحنك المدبّب . وفي غفلة هتف أصغرنا بدهشة : انظروا يميناً .. هناك تخطر فتاة ممتلئة آتية من وراء خيمة صغيرة بتكلّفٍ ومجون . تتناثر على ثوبها الأزرق اللامع وحزامها الضيق المشدود على ردفيها شرائط من ضوء الشمس مستحيلاً بريقاً متشظّياً في اتجاهات شتّى ؛ ضارباً على وجهها الموشّى بابتسامة باهتة ، مفشياً أصباغاً متناثرة : أحمر يصبغ خدّيها ؛ أسود يتشبّث برموشها ؛ أصفر يطفح من تحت بشرتها . خطت صوبَ خيمة مستطيلة كبيرة ، تأخذ طرفاً قصيّاً من صف خيمٍ صغيرة متجاورة . تفجّرت بواعث الفضول لدينا ، وتأججّت نوازع نزقة كانت تلوذ هاربة جرّاء احتمالات عديدة توالدت إزاء وجودنا في هذا الموقف الغريب . زاد في ذلك ما وصل مسامعنا من أصوات تبيّناها على الفور نقرات طبلة وعزف ربابة تتعالى في الهواء تتخللها همهمات وصرخات بشرية كأنها صادرة من أفواه تُضرب ظهور أصحابها بسياطٍ لاهبة .. قفز إلى أذهاننا كلام شيخ العشيرة وارتسمت ملامح وجهه الغضوب . تذكّرنا صورة مدير المدرسة ونظّارته السوداء وهي تحجب أو تخفف الشرر الطافح من عينيه الخرزيتين ، كما تذكّرنا مدير الناحية وقراره الحاسم القاطع . قلنا بلسان العرفان والود والاحترام : كم كانوا حكماء في تصرّفهم ؟!. وكم كان لأهلنا الحق في ايلائهم الثقة المطلقة . إنَّ زهواً بسعة الأثير غمر قلوبنا ، وأراح أعصابنا المشدودة . فالتآلف هو واحدٌ من خصال بيض تشدُّ قلوب أُناس القرية وتجمع وشيجتها .. اقترح أحدنا أنم ننهض ونقترب من الخيمة . لكنَّ أكبرنا هتفَ في وجوهنا : لا تكونوا حمقى ! سننال غضبهم لو اكتشفونا . الأفضل أن ندع الشمس تغيب ، والظلام يهبط قليلاً . نحنُ وصلنا ولا يمكننا العودة دون الاغتراف من موار هذا العالم المغلّف بالأحاجي والأسرار . لقد نسينا أهلاً لنا ينتظرون . سيقلقون لتأخرنا بالتأكيد .. نسينا مَن ينتظرنا عند شجرة السدر الكبيرة ، ولا بدَّ هم الآن في توق متفاقم لسماع ما سنحكيه لهم .... بعد حين صارت الشمس قرصاً برتقالياً طفق يغور في الأفق ساحباً ذيول الضوء الباهتة من دروب القرية وظلال البساتين ، وقيعان السواقي المتشابكة هناك . ونحن هنا ننتظر ؛ وكلّما انتظرنا وأمسكنا قلوبنا المأسورة بالحذر والترقّب تعالت ضربات الطبلة ونغمات الربابة ، واستحالت أشرعة الظلمة رديفاً لهما ؛ تظاهيهما في الصعود . وحين أدركنا أن ليس بمقدور أحد إبصارنا " هيّا ! " قلناها بصوتٍ واحد .تسللنا كالقطط حتى وصلنا الخيمة الكبيرة . توزّعنا على ثقوب ينضح منها وهج ضوء " لوكس " في الداخل . تركنا لعيوننا حريّة التحديق عبر فضائها .. ضحك أحدنا عندما سبقنا بمشاهدة الفتاة ذات الوجه المطلي بالألوان التي شاهدناها تخطر من قبل وهي تتلوّى كالأفعى على إيقاع الطبلة المتواتر ، وغناء سمعناه ينبعث من فم غجرية كالحة الوجه

متربّعة جوار عازف الربابة ؛ غالقة إذنيها بباطن كفّيها الأعجفين . على جانبيها جلس رجال بملابس حضرية وأخرى قروية . وآخرون بملابس عمل انتشرت عليها بقع الزيت الأسود ، وآخرون اختفت أنصاف جباههم بطاقيّاتٍ بيض وضعوها بطريقةٍ مائلة على رؤوسهم فيما شواربهم معقوفة تطوّق شفاهاً مزرقّة ووشم بشكل أفاع وعقارب وأسماء وعبارات مناجاة خضراء حُفرت على سواعدهم .. الجميع يتمايلون جلوساً . في حين ترتفع أيادي بعضهم مطوّحة في الهواء كأنها تؤدي مراسيم توديع أشخاص وهميين ؛ لكن في الواقع _ حيث سادنا الاعتقاد _ تلوّح معبّرةً عن هيام أطبق على القلوب . إزاءهم لمحت عيوننا المستوفزة زجاجات حمراً وأقداحا يملأها سائل حليبي لاصف (3) . راحت الأيادي ترفعها لتفرغها في أفواه شفاهها سائبة ، متدليّة كأنها تسابق ذبول العيون واقتراب رموشها الآيلة إلى الانطباق والركود . تطلّعنا وهمسٌ تصاحبه كركرات مكبوتة تطلقها أفواهنا التي تركتها الدهشة فاغرة حيرى تتساءل عن جدوى ما يدور ...... فجأةً ، وعلى نحوٍ غير متوقَّع إطلاقا تصالبت عيوننا على وجوه أسقطتنا في هول وذهول كاد يسلبنا وعينا ويرمينا جثثاً متبلّدة في شريط الظلام المتكئ على جدار الخيمة لولا العناد الذي فزَّ بغتةً في دواخلنا ، وجعلَنا نصرُّ بإلحاح شديد على الاكتشاف الناجز لنقطع شكّ العقل ويقين العين . وذلك ما حصل ، إذْ لمحنا بعين اليقين رجلاً قروياً أكرش ليس غريباً يخلع عقاله وكوفيته من رأسه ويرميهما عند قدمي الغجرية الراقصة وسط قهقهات الرجال الذين انبرى منهم اثنان حضريان يرتديان بدلتين مهندمتين . نهضا وبحركةٍ راقصة وميوعة ماجنة . خلع الأول جاكيتاً كانت تخفي عيوب جسده الثخين ورباط عنق يتدلى من رقبته ورماهما إلى حيث رما الرجل الذي نعرفه حقّاً هيبته ووشاح كرامته . تبعه الثاني خالعاً نظّارةً سوداء من على جدار أنفه ليرميها بشدّةٍ على الأرض التي تعالى من تحت بساطها غبار رمادي ارتفع وعلا حتى ضببَّ المشهد الغريب فأزاد هياج الجُلاّس وصرخاتهم وبواعث جنونهم ، ودفعنا نحنُ إلى الارتداد مذعورين كأنَّ كلَّ ذرّةٍ داهمت عيوننا عبر الثقوب الصغيرة نصال موجهة بدقّةٍ نافذة : " هل رأيتموهم ؟! هل تصدّقون أنهم .... " . سؤالان خرج صداهما من ذهولنا المرتمي في وحل الرياء والدجل .. نهضنا من مكاننا مأخوذين ، محبطين يكتسحنا ذعرٌ متجبّر . لا ندري كيف جعلنا نترك المضارب الهجينة مندفعين باتجاه القرية المسترخية ، بعد نهارِ تعبٍ طويل ، وعرق عمل أزلي لنوقظها بصرخاتنا الفزعة المعلنِة عن هجوم الوباء الذي كانت مخلوقاته المتناهية الصغر تتحيَّن غفوة الدروب وغفلة العيون بانتظار اكتساح البيوت الوديعة ، المطمئنة ، الآمنة .

تموز / يوليو 1993

السماوة

(1) نتذكّر وسط تصالب عيوننا في السماء مقدم أنفار يربون على العشرين ، مرتدين دشاديش وكوفيات موحلة تتقدّمهم نسوة لا يختلفنَّ عن أمهاتنا بأزيائهن وسحنات وجوههنَّ السمر يتابعن هياكل مخلوقات سود ، ضخمة لها قرون هلالية اعتلى بعض ظهرها أطفالٌ عراة ، هودروا جنوب القرية ، جوار الفرات . بنوا لهم غرفاً طينية . نظر لهم أهلنا بمنظار الضيوف .. استقروا أياماً ولم يحسبوا لسوءة الحظ التي تعرّت فداهمتهم فجر أحد الأيام وهم نيام ؛ نافثة مخلوقات لا مرئية نزلت فتكاً بالجواميس المنهمكة باجترار الأعلاف ، تاركةً إيّاها تمارس فعل الصرع المباغت . يومها انفجر صوت الرعب نزيفاً في القرية وسمع الجميع كلمة " وباء " ، فهبّوا بسكاكينهم الباشطة ، وخناجرهم المشحوذة اللامعة ، منهالين على الرقاب الصلبة المكتسية شحوماً سميكة نحراً ؛ قاطعين دابر ذلك المرض الدخيل وسط عويل نسوة " المعدان " وهنَّ يبكينَ ويصرخنّ كأنَّ الجواميس المنحورة أو المصروعة اخوة لهنَّ أو أخوات .

(2) يوم انحدر ركب المعدان صوب قريتنا لأولِ مرّة ساور الجميع إحساس مشوب بالترقّب والخوف من المجهول .. حضور الغرباء دائماً يثير في الأذهان غبار التوجّس . لكن اللحظات التي ما نسيها رجال القرية هي لحظات تاريخية / الساعة السادسة عصراً ، والديوان يعج بالجالسين المتحدثين وفناجين القهوة تُدار عندما دخل ثلاثة " أزلام " بأزياء كالتي يرتديها الجالسون ، وقالوا : السلام عليكم . فردَّ الجميع تحيتهم . رُفعت الدلال من جديد ؛ وأُديرت الفناجين . تناولتها الأيادي وأفرغتها في الأفواه المتحفّزة . وسمع المتطلّعون المنصتون بعد صمت قصير ما قاله الغرباء .. كان في كلمهم مودّ' واستماحة ، ورجاء . تلك الليلة عاد الجميع مطمئنين إلى بيوتهم ، صار حديث الغرباء الودّي حديث كل بيت فتكحّلت العيون قريرةً برؤى الطمأنينة ، وتلاشى الشك من الصدور نهائياً .

(3) في صبيحة يومٍ ما قدمت من دروب المعدان ثلاث نساء يحملنَ أوانٍ من الألمنيوم البرّاق ؛ تعلوها طبقات من القشطة المُعَدة باعتناء ، تغطّيها قطع قماش بيض ويحملنَ زجاجات مُلِئت بالحليب المُركّز ، تفرقنَ عند مدخل القرية ، ورحنَ يخطونَ .. الأولى اتخذت طرقاً يفضي لبيت شيخ العشيرة ؛ والثانية أسرعت بخطى حثيثة صوب بيت مدير الناحية ؛ ومثلها فعلت الثالثة فكانت تطرق باب مدير المدرسة وسط ملاحقة عيون القرويين وهمسهم . وعرفنا في ما بعد أنَّ ذلك كان جزءً من ثمن بقائهم والجواميس في أرض الله .

تبّون والحصان

بعينين خرزيّتين ، ونظرات ثاقبة متفحصة استطلع المواد التي افترشها أمام دكّان مغلق على الدوام ، يقع وسط السوق الشعبي على يسار مدخل عريض ، يفضي إلى سلم لفندق في الطابق العلوي .. النازل من الفندق أو الصاعد إليه يستطيع رؤية " تبون " أبو العتيق بجسده الضخم ووجهه الأسمر المدوّر الممتلئ ، تطوق رأسه " جراوية " من يشماغ متسخ . منذ أن فتح عينيه على هذه الدنيا والعالم صامت لديه .. يجلس خلف خردوات ومواد قديمة متفرقة ، من المرجح انه حصل عليها من أنقاض بيوت هُدمت في فترات متفاوتة ، أو التقطت من منخفض الفرات حيث يشح ماءه (أيام يصير النهار ثلثي اليوم ، وتصير الشمس بؤرة ساخنة ، لاهبة) فتظهر ما رُميت فيه من أباريق وقدور نحاس أو ألمنيوم ، مثقوبة أو منبعجة ، ومسامير حديدية صدئة اقتُلعت من أبواب متهرئة سُجِّر خشبها يوماً ما في تنانير فاغرة لبيوت ترقد في أزقة موبوءة بالعفن والرطوبة والهواء المحنط .. أزقة لشدة ضيقها تكاد تمتص الهواء امتصاصاً ، يندفع منها بين الحين والآخر صبية نزقون ، لشد ما يثيرون حنقه ، ويؤججون في داخله غضباً يكاد يكون من العصي عليه كبح جماحه ، يقفون متطلعين بعيون تسيل مكراً وخبثاً ، يخيل إليه أنهم يتحادثون بصمت سافر عمّا يرونه من أقفال فقدت مفاتيحها ، أو مفاتيح ضاعت أقفالها ، كفوف برونزية مبسوطة تتوسط راحتها عيون بشرية خط فوقها وبخط بارز " اللّه " وتحتها " الحسود لا يسود " .. مرشّاة عطور فضية يكسوها صدأ رمادي قاتم .. أصداف لامعة براقة .. قواقع بحرية .. أبدان مختلفة لأجهزة صوتية ماتت فيها حرارة الأصوات وهجرتها آذان كانت تهفو لسماعها بشغف وهوس أقرب إلى الجنون ... وعلى صندوق حديدي جانبي ينتصب هيكل برونزي لحصان عربي جامح ، يقف ورقبته متصلبة ، ينسدل على جانب منها شعر كثيف متطاول .. الفم مفتوح يخيل لمن يحدق في عينيه المستوفزتين إنه يطلق صهيلاً يشيع في امتداد السوق ودكاكينه ، مقتحماً أسماع المتسوقين والمتفرجين ، وأصحاب الدكاكين والباعة المتجولين (من يقوى على ترويضه وامتطائه ؟) يبدو متذمراً ضجراً ربّما من الرطوبة وعفن الهواء المنبعث من رشح أنابيب الماء الصاعدة إلى طوابق الفندق الثلاثة .. معظم نزلاء الفندق هم جنود مستجِّدون وموظفون غرباء . وفكّر " تبون " : اليوم هو الجمعة ، إذن لن يتمكن من رؤيتهم يهبطون من الفندق أو يصعدون إليه ، فهم الآن عند أهليهم ضيوفاً مرحَّباً بهم ، يحلمون على وسائد طرية ، وتحت أغطية ناعمة : حلم الجلسات العائلية والنزهات الروحية ، والزمن المتدفق على مرافئ الطمأنينة الناجزة / حلم الارتحال إلى ذلك العالم الصغير والتقاء الوجوه الصغيرة ، النقية طافحة بالبشر والبراءة والتي أضحت أشباحاً حلّقت عالياً ثم تسربت كالدخان / حلم التسكع ليلاً في الأزقة والطرقات الخالية في مطاردة الكلاب والقطط السائبة بلا هوادة / حلم الإغارة على أعشاش البلابل والعصافير واقتطاع عناقيد العنب وثمار الرمان وهي لمّا تزل فجّة / حلم العوم في الأنهر الزرقاء أو الارتماء في الترع والسواقي الضحلة عُراة تماماً إلا من ضحكات نزقة تخرج من القلب فتسيل مرحاً وانتشاءً بعيداً عن أعين الاستحياء والتحذير غير المقنع من أفواه الكبار المأسورين

بالهواجس المقلقة والخوف الدائم من المجهول .. وتذكَّر " تبون " نزيلَ الفندق الشاب الذي تردد أكثر من مرة لشراء الحصان . لقد دفع مبلغاً حسبه يسيراً وغير مقنع جعله يرفض حتى عندما أضاف زيادات أخر . لكن الشاب كان عازماً على الشراء مثل طفلٍ يصرُّ على حيازة لعبة أثارت اهتمامه وأججت عنده رغبة الامتلاك . لقد اشترى منه في أوقاتٍ سابقة أكثر من تحفة دون مساومة ، فما باله الآن ؟

كان الوقت ما يزال مبكراً ولا ريب أن يلوم " تبون " نفسه خصوصاً وان زوجته طلبت منه البقاء في البيت لوقت أطول فرفض . لقد استيقظ كعادته مع أذان الفجر فأدّى الصلاة وتناول رغيف خبز وقدحين من الشاي ، وخرج يدفع العربة ذات المسندين الخشبيين عبر أزقة متشابكة ، حتى أن انتهى إلى الشارع العام وجد حركة السيارات ما تزال محدودة ، والأرصفة خالية تفتقد المارة ،، وهناك عند مدخل السوق حيث يصير قريباً من موقعه ومكان عرض خردواته وجد عربات تبيع الحساء والبيض المقلي واقداح الشاي ، يتحلَّق حولها بضعة أنفار جُلُّهم عمال بناء وجنود يوشكون على الذهاب إلى معسكرهم الكائن خارج المدينة . وكان عليه أن ينتظر ما يزيد على الساعتين حتى تدبُّ الحركة في السوق ، وتستبيح الشمس بأشعتها الصفراء أركانه ليشع بريقها شديداً تاركاً عيون المارة نصف مفتوحة ، وظل هياكلهم قصيرة متقزمّة بينما تعلو أصوات باعة الخضر ضاجة صاخبة ، وتتجمّع نساء وأطفال آتين من مداخل المدينة وأطرافها كي يعرضوا ما يودون بيعه من سجائر بأسماء عربية وإفرنجية ، وبضائع مهربة ، ملابس وأحذية سبق استعمالها ، ساعات لها أسماء غريبة وأجهزة مذياع مشكوك في استمرارية صلاحيتها . يقابلهم آخرون جلوساً أو وقوفاً عارضين بضاعتهم ، طيور البط والدجاج والبلابل وعصافير الحب والكناري ، وأقفاص بأحجام متباينة بانتظار من يدخلها (ومن يدخلها يغدو أسيراً والى الأبد) . لقد أسره ذلك الشاب نزيل الفندق ، وجعل يفكر : إن بعته بالسعر الذي يريد فستكون خسارتي ربع كلفة الشراء ، وهذا غير معقول .. غير معقول على الإطلاق . أنا على ثقة من أن أحداً سيأتي لشرائه ، فالكثيرون توقفوا وتطلعوا إليه وأمعنوا النظر فيه . وكثيرون هم الذين أفشت عيونهم بالدهشة والإعجاب لوقفته المتحفزة ، المتأهبة للانطلاق .. كانت عينا الحصان مفتوحتين على أشدهما كأنهما تبثّان سحراً آسراً ، وإلا ما الذي يدفع المارَّة على التوقف مشدودين متصلبين ، كتصلب عيون " تبون " على الدكان المواجه له والذي شرع صاحبه العجوز يفتح ظلفتي بابيه الخشبيتين ويدفعهما إلى الجانبين ؟.. الدكان يشذُّ بما يحتويه عن الدكاكين المجاورة . وكما لو تحررت رغبة حبيسة في رأسه ، فكَّر : لو كان له مثل هذا الدكان العجيب لرمى بخردواتهِ وأشياءه العتيقة في عرض النهر ، ولتخلص من رحلته اليومية المتبعة بعربته الهرمة ، ولكان قد تعلم سر مهنة ذات شأن كبير لا يعرفها سواه .. إنَّ دهشةً بحجم الدكان تهيمن عليه كلما تطلع في مرأى الأشياء التي يحتويها ، فهي تشكل في تصوره عالماً غريباً ، مكتنزاً بالطلاسم والألغاز .. مجرات صغيرة تنفتح الواحدة منها عندما تُسحب حلقة برونزية لامعة فتفوح روائح متنوعة لأعشاب طبيّة مخلوطة أو منفردة (ورد لسان الثور ، ورد البنفشة ، بابنّج وغيرها) .. وفوق صف المِجرات تتراصف قناني ماء الورد والزعفران وعصير الليمون وسوائل مستخلصة من بذور الهيل وأخرى تضاف إلى المأكولات فتفوح رائحتها شهيّة زكيّة .

بعد وقت ....

دبّت الحركة في السوق فتزايد أعداد المارة ، وتسابق بائعو الخضر والفواكه بعيون متحفزة لاغراء واستقبال من جاء للتسوق ، واحتشد عدد كبير من الرجال والصبية حول بائعي الطيور ، وعجّت في المكان أصوات مختلفة متنافرة .. وعلى مقربة من صف سيارات حمولة انشغل بعض سائقيها بتفريغ أو تحميل بضائع مختلفة توقفت سيارة باص طويلة كُتب على جانبيها بحروف لاتينية اسم شركة أجنبية نزل منها أشخاص من ذوي البشرة الصفراء والوجوه المضغوطة بأنوف مفلطحة ، وآخرون طوال القامة ببشرة بيضاء محمرَّة ، يظهر لفح الشمس عليها جلياً ، شعور رؤوسهم بلون الحِنّاء .. المرأة فيهم تطاول الرجل .. تتدلّى من أكتافهم حقائب جلدية فارغة .. فوجئوا بهجوم الشمس وسقوطهم في دائرة ضوئها الساطع فانكمشت عيونهم لبرهةٍ ، ثم تفرّقوا على نحو ثنائي ، أو بشكل مجموعات .

كان " تبون " منشغلاً بإعطاء أسعار الخردوات بإشارةٍ من أصابع يديه لمن جاء يسأله عندما توقف رجل وامرأة يلبسان الجينز . راحا يمسحان المواد المفروشة بعيون زرق ثاقبة .. في السابق كان الاثنان كلّما مرّا من هنا توقفا قليلاً يستطلعان الأشياء ثم لا يلبثا أن يندفعا إلى داخل السوق (والسوق مسقَّف بأعمدة حديدية تغطيها صفائح معدنية ، ويتناسل الفيء فيها طيلة النهار) ليتفرجوا على محلات بائعي الأقمشة / الصاغة / الخياطين / العطارين / المقاهي المحلية وهي تعجُّ بالرواد من مدمني شرب الأرجيلة ،ولاعبي النرد والدومينو . لكنهما توقّفا هذه المرة طويلا ، وراحت المرأة ذات العينين الزرقاوين بعد أن تحدثت بلغة غريبة مع الرجل الذي سحب يداً كانت تطوق خصرها تحدق في الحصان المنتصب وتنظر إليه من زوايا متعددة . توهجَّت عيناها على نحو مفاجئ . خُيل لـ " تبون " الذي لفت انتباهه وقفتها الغريبة إنها ستقفز إليه وتسحبه من عِنانه . بهت الرجل الواقف إلى جانبها وتفوّه بكلمات مُبتسرة ، باردة لعلّه يبغي إطفاء انفعالات تأججت وطفت على وجهها فزادته إحمراراً . قالت بدهشة المرأة اللائبة : انظر إليه ألا يثير اهتمامك ؟.. تذكّرت كيف كان أبوها يمتلك عدداً من الخيول الأصيلة ، كانت يومها بنتاً صغيرة تأسرها الدهشة لمرأى أبيها وهو يمتطي أفضلها مندفعاً خارج باحة الإسطبل باتجاه حقلٍ يمتد عبر مساحة شاسعة والخيول تنطلق كالبرق .. كان أبوها يسعى بين الحين والحين لتدريبها ، طالباً منها بعينين نافذتين ، طافحتين بالصرامة أن تتقن مهارة ركوب الخيل .. شيءٌ ما كان يساوره ، يتمثل بخوفه من أن يفلت زمام الأمر من يديه أخيراً ... وأخيراً قررت الخيول الانعتاق من أسره حين أدركه الكبر وأثقلته سنوات العمر فراحت تتحرر من أمام عينيه وهو صاغر / عاجز .. ساور المرأة ألم مُمض ، فقررّت شراء الحصان بأي ثمن ، لتعيد سطوةً افتقدتها منذ زمن بعيد .. رفعت يديها راسمة إشارة تشي بسعرٍ مغرٍ ، أيقنت أن " تبون " سيقبله ، وها هو على وشك ذلك ، إذ تطلّع في وجهها وصار كأنه يفكر بأن السعر مقبول جداً فابتسمت في وجهه محاولة بغمزة من عينها إرخاء عِنانه وإضعاف كبريائه ، لكنّه لبرهة استحالت لديها زمناً ثقيلاً حرك رأسه معلناً رفضاً قاطعاً جعل وجهها يشحب وقلبها يعتصر ، ودمها يسخن فتهتف بحنق الذئبة الجريحة : أيها الأبله كيف أقنعك ؟.. فكّر بإمعان لو حصلت عليه ستمتطيه وتتعبه .. ستسومه العذاب ، تحثّه على الجري

السريع ، تدخله حلبات السباق ، تمس كبرياءه ، إذ تلكزه بفردة حذاءها المتكلبسة في مؤخرته دبابيس لها رؤوس حادة مؤلمة ستجعله يعدو لاعناً يوماً أضحى مصيره بيد امرأة رعناء .. انداحت من أمام أنظاره صورة المرأة والرجل والمارة ودكاكين السوق وهياكل الأبنية المنتصبة خلفها واستقرت على الجسد السابح بدمٍ ما يزال فائراً ، متدفقاً من ثلاث بؤر فاغرة فوق الصدر .. شاهد بعين الطفل ذي الأعوام المعدودة يد أبيه ما تنفك ممسكةً بصلابةٍ على قبضة " المكوار " .. كانت عيون الذين حملوه تتَّقد وتتوهَّج .. ورأى تبون أمّه واقفةً عند رأس أبيه تجاهد في سحب " المكوار " من يده لترفعه عالياً ، مؤجّجة غضب رجال العشيرة الذين رفعوا فالاتهم ومكاويرهم وبنادقهم بحركة واحدة ، مرددين عهد الثأر والانتقام .. خيل إليه أن عيني المرأة التي أمامه هي ذات العينين المتقدتين شرراً وعداءً وذات الفم الذي تفوه آمراً حاملي البنادق من الهندوس والسيخ والكَركَة ليطلقوا النار من نوافذ القطار المنطلق بأقصى سرعة هرباً من الثوار المندفعين لتعطيله ودحرجته من على السكَّتين .. رفع رأسه كمن لُدِغ فهز رأسه رافضاً من جديد ، يسيل من عينيه الصغيرتين ، الحادتين تحدٍّ عنيف ، ولم تُجدِ محاولاتها المستمرة نفعاً . وعندما حاولت للمرة الأخيرة إغراءه بمبلغ يفوق أضعاف السعر وجدت أنْ لا أمل يُرجى منه .. نهضت بإشارة من الرجل الواقف بجانبها ، وانسحبت كنمرة كسيرة منهزمة شاهدهما " تبون " بعد حين يخطوان متخاذلين . علت وجهه ابتسامة وسرت في أوصاله نشوة ارتياح جارفة . استمر هذا الإحساس يساوره حتى عندما انقضت ساعات عديدة ، وصار النهار يوشك على الاحتضار ، وقلّت حركة الأرجل ، وأُغلق اكثر من دكان ، وجعل بعض الباعة يعدّون مدخولاتهم ، بينما غادر بائعو الطيور والسجائر وآخرون المكان ، وبدأ نزلاء الفندق يتقادمون إليه بوجوه حزينة متعبة ربما لأنهم سُلبوا متعة البقاء الدائم مع أهليهم فتركوا أماكن استقرارهم النفسي والعاطفي ، لذا كان سلامهم على " تبون " أقل حرارة مقارنة بأيامهم الاعتيادية . إنه يدرك ذلك على أية حال .. والابتسامة التي يرسمها على محيّاه ، كانت تنضح بألم دفين كلّما رد على تحية أحدهم رافعاً رأسه إلى السماء كأنه يقول " خليها على اللّه " في عون الشاب نزيل الفندق عندما ألقت به سيارة الأجرة واقترب منه ومن خرداواته حيث كما وجهه شحوب مفاجئ ، ونظرات شرعت تبحث حائرة قلقة عن شيء تركه يوم أمس هناك فوق الصندوق الحديدي ولم يره الآن .. أنزل حقيبته أرضاً وراح يسأله بإشارات مرتبكة فهمها " تبون " على الفور فأطلق ضحكة احمرَّ لها وجه الشاب ، وكاد أن يندفع مشحوناً بالغضب إلى الفندق لولا الإيماءة الصادرة من رأس " تبون " بإيقافه .. انحنى وبيده السمراء المكتنزة أخرج من الصندوق الحصان الجامح فسقطت حزمة من ضوء المصابيح المشتعلة في واجهة الفندق على رأسه الشامخ ورقبته المتصلبة ، شعَّ على أثرها بريق هاجم عيني الشاب اللتين إئتلقتا بغتةً .. أمسك الحصان . رفع حقيبته واندفع مرتقياً درجات سلم الفندق وصولاً إلى غرفته المطلة على السوق والتي شاهدها " تبون " بعد حين تُضاء ثم تنفتح على مصراعيها منطلقاً من داخلها فارس يعتلي حصاناً ، مندفعاً نحو السماء ، صوب نجومٍ تبرق وقمرٍ يأتلق .

آذار 1992

السماوة

طيــور ســعد

منذ استيقاظه وفراشات البهجة تهفهف بأجنحتها الرحيقية في فضاء روحه الحالمة ، ربّما لأنَّ الصباح أطلَّ رائقاً بهيجاً . أو ربّما لأنَّ الرؤيا التي راودته كثيراً ومرّت بشريطِ خيالاته مراراً قد استحالت حقيقةً ناجزة .. عجّت عيناه المتطلعتان لزوج الحمَام الفضي اللذين ابتاعهما يوم أمس بفرحٍ غامر ، واندهش لرؤيتهما يتآلفان بسرعةٍ عجيبة مع بقية حمائمِه وينهمكان في التقاط البذور التي نثرها فوق سطح غرفةِ بيتهم الطينية .. صدّق واقعَ امتلاك ما كان يحلم به وأيقنَ الآن أنَّ إصراره على الحلمِ والتحليقِ في فضائه هو الذي كرّسه وأحاله حقيقة .. أراد القول : لولا الحلم لما ولِدت الحقيقة لكنّه لم يستطع اختصارَ الكلمات المتزاحمة في رأسه واختزالها بهذه العبارة الموجزة ؛ فسنواتُه الثلاث عشرة لا تمنحه القدرةَ على التعبير بذلك .. أربعة لأزواج راح يطالعها بولهٍ غريب : زوج أورفلي ، زوج عنبري ، زوج مسكي ، ثم زوج فضّي .. تشكيلةٌ متكاملة ، هكذا راح يبصرها . سيجعلها تطيرُ محلّقة في رحابِ هذه السماء الشاسعة راسمةً ديباجةً من ألوانٍ طيفية تمر من أمام عينيه كسحابة كريستالية تنفذ إلى قراراتِ روحه عبر مفارق تنبثقُ على أعطافِها دررٌ ضوئيةٌ تفيض إشراقا وتسكب أنواراً مائيةً متفاقمة . وقتها سيفردُ ذراعيه ويهتفُ بلسانِ مَن لم تكتمل دهشته : " يا للسعادة التي ينقصها الجناحان ! " . أنحى نظره جانباً واستدارَ ليترك البيت ويخرج . تحسّسَ العرقَ ينزُّ على بشرته فأدرك سخونةَ الهواء وضراوةَ الشمس . جعل يتأفف لوهجِها المندفع لعينيه وعرف أنه صرفَ ساعات الصباح والضحى في رحلةٍ عفويةٍ انشطرت فيها تأملاتُه ورؤاه ، سابحةً في لازوردٍ مُفعمٍ بسيولٍ دافقةٍ من اشتياقاتٍ وتناغياتٍ تمورُ في دوّاماتٍ أثيريةٍ من طوفانٍ خدرٍ لذيذ .. انبثق في داخله صوتُ الإحساسِ بغرابةِ الموقفِ وتذكّر أنَّ مردَّ ذلك هو تلك المخلوقات الباعثة على تفجيرِ الأحلامِ المُعرّشة بسحرها على منافذِ روحهِ المُشرعة . فهمس بخفوت : " أُريد لها أن تحلّق بعيداً ، بعيدا ؛ تطير بلا عائقٍ / بلا مُحبطٍ / بلا رقيب . " . خرجَ سالكاً درباً تحتشد على جانبيه زروعٌ وطيئةٌ تعلوها شجيراتٌ تتدلّى أزهارُها الحمراء بكثافةٍ تُغري حشراتٍ نهمةً مهفهفةً بأجنحةٍ هوائية في محاولة الهبوط على مياسمها المتفتحة بشراهةٍ . على مقربةٍ كانت بضعُ بطّاتٍ بيض تندفعُ بأجسامٍ متموّجة لتدخل ساقية صغيرة انحسرت فيها المياه . شاهد ثلاثاً منها تنزلقُ في الماء ثم تعوم دون جهدٍ مُطلقةً من بين مناقيرها التي تبدو كأنصافِ كعكات أصواتاً زاعقةً ؛ تحاكيها بذات الصوت بطّات أُخريات يوشكن على النزول .. تذكّر حمامتيه الجديدتين ! تذكّرهما . وإذ ذاك تمثّلت أمامه صورةُ " كامل " .

كان كامل زميلاً له يشاطره الكرسي في الصفّ طيلةَ السنةِ الدراسية ، وعدهُ ببيعِه الحمامتين . ولمّا كانت قريةُ كامل تبعد كثيراً فقد اضطره ذلك إلى النهوض مبكّراً مُنطلقاً بحمارته ، متّخذاً درباً نديّاً بين مساحاتٍ واسعة مغمورة بالمياه ، تنبجس منها حشودُ سيقانِ الرزِّ الخضر وتختبئ بينه كلّما اقترب وتناهى صوتُ ارتطام أرجل حمارتِه على الأرض طيورٌ بيض لها سيقان طويلة مستدقّة .. سار قاطعاً طريقاً طويلاً مرّ خلاله أمام مدرسته مُبصراً بابها الموصد العريض ، في وقت كانت الصفوف والممرات ترنو في صمتٍ موحش .. لن يدخلها بعد

الآن . لقد صار في المرحلةِ الإعدادية . سينتقل لمدرسةٍ جديدة في مركزِ الناحية ؛ وسيشتري دراجةً منظمّاً لجوقَةِ الطلبة المنطلقين كل صباح إلى هناك . تذكّرَ أنّه خرج منها في اليوم الأخير واستدار متملّياً بناءها الشاخص وسط بقعةِ ارضٍ خضراء مزدهية بأشجار الأثل والكالبتوس التي زرعها أول مدير مدرسة جاء بها من المدينة . قال وداعاً .. وقال له كامل : لو لم تكن صديقي لما بعتك الحمامتين . لقد جلبهما أبي من " سوق الغزل " في بغداد عند مجيئه بإجازةٍ من عمله في "سامراء" . يقول أبي في هذا السوق تمتلئ العين بأنواع الطيور : طيور الحب / الكناري / الحمام / الببغاء . انتفض وهو يتفوه بكلمة ببغاء . هتف : أتدري يا سعد ؟ يقول أبي أنَّ الببغاءَ تنطقُ بلغتنا ، تلقي عليها التحيةَ فتجيبُك وتسأل عن صاحبِ الدار فتخبرك ، وإذا أزعجتها تشتمُك ثم تطلب النجدة .. مضى خلفَ الروف تنبثق في رأسه إيماضات صاعدة نحو فضاءات بلا حدود .. أيادٍ صغيرة لصِبيةٍ رعاة تلوّح بها عاليا ، عيونٌ متصالبة في تتابعٍ وملاحقةٍ لا تتوقف ، أفواه تسوّرُها شفاهٌ طريةٌ غضّةٌ مفغورة على أشُدِّها علامةَ إفشاءِ الدهشة أو الإفصاحِ عن ذهول ، صبايا ساهياتٍ عن جرارٍ أخذها من بين أيديهن مدُّ الماء الدافق في السواقي بينما عيونُهن تطفحُ برغبةِ الاستغراق في التطلُّع لمهرجانِ التحليقِ وقلوبهن تنبض بمحبةٍ تجلِّلُها البراءةُ لهذا الفتى المهووس بحمائمه .. توقَّف حيثُ الساقية العريضة وماؤها الذي يرسم دوائرَ الاشتياق لضمِّ جسدِه الصغير كي ما يبدّد من خلاياه شحناتِ الحرارةِ المتأججة . توقف عند عُشبةٍ تحاذي الجرف فخلع ثوبه ونعليه المطاطيين وتحرك نازلاً إلى الماء . ذلك جعلَ ضفدعةً كبيرة كانت غاطسة في بقعة طين ضحلة تقفزُ وترتمي وسطَ الساقية مُحدثةً ارتطاماً شتتَّ أسماكاً شذرية صغيرة كانت مُتخفيةً بين حشائشٍ منبثقة من جوف الماء . لم يأبه لما حدث (شعورٌ بالتوحُّد مع مفرداتِ الطبيعةِ يخامرُه . هو جزء منها : الأشجار / الزروع / السواقي / الضفاف / النهر / غدير الماء / بوح الفواخت / ثغاء الأغنام ، وكل ما حوله يُترعه بألفةٍ وحميمية) شرعَ يغطسُ ثم يعومُ متلذّذاً بنشوى طراوةِ الماءِ وبرودته ، سائراً مع المجرى أو جاذِفاً عكسهُ . ثمّةَ سهامٌ ضوئية تنفذُ عبرَ تشابكاتِ أغصانِ شجرةٍ توت مُعرشة بمحاذاةِ الساقية تتساقط على وجهه الطافي فوق مستوى الظل الملامس للماء ، استعذب مسارها باتجاهه فاستلقى على ظهرِه كأنه يبغي استقبال نصالاً أكثر ، تاركاً لعينيه حرية تأمل زرقة السماء وصفاءها . وحين رفع رأسَه عن الماء إثرَ رفرفةِ جناحي فاختة سمع أصواتً بعيدةً لفلاحينَ يتنادون ، تبعتها زقزقةٌ متواصلة لعصفورٍ متخفٍّ بين أغصانِ شجرةٍ قريبةٍ أيقظت فيه حسّ تذكُّر حمامتيه ، فتساءل هامسا إنْ كانتا تستعجلان الانسجام مع البقيةِ فتطيران غداً ! .. تُرى هل سيأتي غدٌ ؟

******

تتصرف بضعةُ أيامٍ فتذوب لياليها في عينيه أحلاماً ورؤى وتخيّلات . يأخذ به زورقُ الكرى إلى عوالمَ بعيدةٍ ، لها قدرةُ تحقيقِ ما يبدو مستحيلاً . هناك تحملُه أمواجُ الدهشةِ فيهتفُ بغرابةِ الموقف : " أحقاً يمكن ما لا يمكن ؟! " فيأتيه الردُّ منساباً بنبراتٍ منغّمةٍ : نعم .. نعم . ويجد نفسَه مُحلّقاً في فضاءٍ تنأى به الحدودُ على ظهرِ واحدةٍ من حمائمه ، فيطلقُ شهقةَ العجب مدوّيةً هذه المرة في تخومِ الأثير ، تتلقّفها النجومُ ، والأجرامُ ، وسفنُ

الفضاء التائهة من قواعدِها الأرضية وتعيدها مع ردٍّ يقول : لا تعجب أيها الفتى رفيقُ الحلم .. هو ذا عالمُك فتمنّى .. هي ذي دنياك الخضراء فارتشف من كأسِ هنائِها ما تهوى .. دُرْ في بوحِ الألق ، دُر وارفعْ عن جيدِك عقدَ شظايا الخوف . إهنأ .. إهنأ ، فالكلُّ مطواعٌ بيديك .. يبوح بإعجابه لحماماته وهي تنتظم أنساقاً على جانبيه . يتكاثفُ شيئاً فشيئاً إحساسٌ غريبٌ في داخله ، يجوسُ في مسالكِ تلك الروح الطافية كغيمةٍ في سديم ، فيُدرك بفعلِ اللحظةِ أنَّ للحلمِ تأثيراً مضاعفاً هو أقربُ إلى السحر أو التجلّي ، ليس بإمكان من يفتقده تخيّل مقدرة حملِه باليسر الذي تحمل فيه نسمةٌ أريجَ زهرةٍ فتية .. يتطلَّع إلى أسفل : هو ذا بيتهم بغرفتيه الطينيتين وسوره الواطئ ، وتلك بيوتات القرية تتناثر كأنها أقنان طيور ، وأولئك رجال ونساء يمنحون عرقَهم للأرض والزرع شوقاً ومودَّة واستئثاراً . وهناك أغنام تقضمُ من شريطٍ عشبيٍّ يمتدُّ حتى غدير الماء الذي ستهبط عنده طيورُه سعياً للارتواء ... أبقارٌ تمدُّ أعناقها لتكرع من ساقيةٍ دافقة بالماء .

تستمرُ احتفالية التحليق وقتاً، وتتّوالى سُوَرُ السعادةِ الموشّاة بألوانٍ طيفيةٍ مشرقة / مهيمنة .. بيدَ أنَّ ملامحَ المشهدِ الجميل سرعان ما تُنتهك وتنفرِط ياقوتاتُ عقدِها النوراني عندما يباغته من بعيد شيءٌ يبتدئ بنقطةٍ سوداء تتمخَّض بومضةٍ خاطفة عن عقابٍ هائل ، مريع ، منطلقاً كالرمحِ ومنقضّاً على جمعِ الطيور المحتفية .. يجد أنْ لا مناص من الدفاع .

تتحفّز اليدان وتتأهَّبا لصدِّ نقراتِ المنقار المعقوف ، متحملةً ألمَ المخالب المغروزة في اللحم الطري . ومن دون إدراك ما يُصار إليه الحال تتفتَّت سحاباتُ الحلم ليجد جسده غارقاً في عرقٍ غزير بينما أنفاسه تتلاحق ، ويديه تتحرران من قيود تشنج قاهر .

*****

لعدَّةِ أيام ظلَّ مع ومضةِ الفجر واقتراب بزوغِ الشمس يزيل مغاليقَ الأقنان ، مانحاً حمائمَه الضياء والانعتاق ، ناثراً إزاءها البذور ، مُستبدلاً ماءَ الإناء . حتى إذا أشبعها وراحت أجنحتها تصطفق مرحاً وارتياحاً رفع عصا طويلة تتدلّى في نهايتها خرقة سوداء سائبة يهفهف بها عالياً فتتبدّل الرؤوس الكروية الصغيرة يميناً ويساراً . وبزمنٍ قصير يشاهدها تطوف وترتفع ، وبذات الوقت تُضحي العصا تدور وتدور . تكبر دائرةُ الاتساع ، وتكبر .. تكبر ، ومعها تنهمرُ على مرايا روحِه قطراتُ ندى باردة ، وترغو على امتدادِ طوفانِ لواعجِه بهجةٌ آسرةٌ تجعله شاخصاً ، متوثِّباً كما لو كان سيطير مُنظمَّاً لمهرجانِ الندى ، تبدو طيورُه وهي تلجُ دائرةَ الشمس كأنَّها حبّات عقدٍ مُجسَّمة ، لها أوجهٌ متفاوتةٌ تعطي بروقاً متناثرة بمدياتٍ ونِصالٍ ضوئية توحي بلحظات فجائيةٍ من سهامٍ فائقة في خطفها وانطلاقتها ، مُكرسة حالةً من الإيهام في الرؤية والتخيل (الإيهام هو فيض من تجلّيات مزعومةٍ تنبتُ في أديمٍ لا قرار له ، ذلك أنَّ الرغباتِ المتوسِّدةَ صدرَ التراكم التخيلي تُفضي إلى الأمنيات ، بينما الأمنياتُ نجومٌ نائيةٌ في سماءٍ لا تعترف بحدود عالمها) .. وهو قانعُ بأمنياته يتابعُ حركاتِ حمائمِه النزقة وهي تستعرض هياكلَها المغزلية مُظهرةً مهارةً في الدوران الوئيد ، أو الهبوط الخاطف ، أو الصعود الشاقولي (بينه

وبينها خيوطٌ من ألفةٍ واحتضان ، ود وانجذاب .. هي توشمُ صحائفَ رغباتِه بكؤوسٍ موشاةٍ بالبريقِ والألق ، ملأى برحيقِ اللذَّةِ والخدر ، وهو ينثر تحت أقدامِها تويجاتِ التحررِ والازدهاء) وكما لو كانت تستعذب افتانه وإشباع كبريائه المتأجج في أعطافِ روحه السائحة تشرعُ واحدةٌ منها بالتقلّب الخلفي لمراتٍ عديدة ، حتى تبدو كأنها أُصيبت بطَلَقٍ ناري ، أو طُعنت بسهمٍ تائهٍ فتهوى .. وحين تكتمل اللعبةُ بانشدادِ العيون ورعشةِ القلب تروح باسطةً جناحيها ، ملتحقةً بالجوقة التي سبقتها ، تاركةً الأخرى تتلوها بذاتِ الفعل ، وهكذا تراه مستأنساً وَلِهاً بحفاوةِ هذه اللعبة ، المهرجان .

تلك هي حمائمُه ، تلك هي أمانيه : ثمارُ جنائنِه ، وفيوضُ أحلامه ، مع أنسامِ السحر تأتيه بهيئةِ همسات ، أنغام مضمنة بعبق سماوي يتغلغل بين ثنايا الروح فيترعها بكؤوس الرغبات الناجزة ، المتحققة ، فيتيه على مرابض الغيم ، ويفك حصار العين .. ينتشي مع طيّات البهجة قبل تشظّيها .. يدعْ القلبَ يطير فتأخذه الأنسامُ الباردة الى مداراتٍ ورياضٍ فارهةٍ تطفو بحشودِ الورد اليانع تحت شمسٍ مُبتغاة ..عالم ابتهالات منغمة بحداءٍ رخيم يبعث على السمو وسط هدوءٍ تشيعُ في قرارةِ الروح دعاءً ملائكياً يعيدها إلى مهدِها الفردوسي .. موسيقى .. موسيقى تسيلُ انتشاءً ، وتنهلُ فوقَ مساربِ النفس وانحناءاتها رذاذ حبورٍ غريبٍ تحيله مخلوقاً يمتلك أجنحةً تخفقُ في فضاءٍ يضوع بعطرِ أنسامٍ ما شمَّ لها شبيهاً من قبل (هو ابنُ الطبيعةِ ، قرينُ الوردِ ، سليلُ ملحِ الأرض) .. ومدار أخير تتكشّف فيه تخومُ المياه : سوائلُ بلونِ الزروع ، بلونِ اللازورد ، بلونِ الثلج . تلك الأمواهُ تدعوه إلى العومِ في خلجاتها الفريدة لتعمّده بالنقاءِ والشوق وتمنح عينيه هبةَ تحقيقِ المستحيل ، فيتساءل إنْ كانت السعادةُ شيئاً ملموساً كي يغرف منها ما يشاء ليودِعها خزائنَه الدفينة ، الغائرة في زمنٍ يطلق عليه "المستقبل" ! .. يستمرُّ ذلك وقتاً طويلاً تهبط خلالَه العصا من يدهِ وتقترب حماماتُه من الهبوطِ عند غدير الماء خلف الروف . لحظتها ينزل تاركاً البيت . يعدو صوبَ شجرة التوت الناهضة هناك . تواجهه مزارعُ الرز الممتدة بعيداً . يبصرها تنطلقُ باتجاهه ، والشجرةُ تتضخَّم أمام عينيه ، وبركةُ الماء تكبر وتتسع ، حتى إذا اقترب وتوقَّف توقفت حوله الموجودات .. يعتلي جذعَ الشجرةِ لاهثاً ، معروقاً .

وحينما اقتربَ من الشجرة هذا اليوم لم ينتبه لصبي كان يرعى أغنامه قريباً من منه .. صاح به الصبي :

- سعد ، تُتعب الطيور ، تجعلها تحلق طويلاً .

- ليس أنا ، إنما هو شأنها .. الطيور تموت إن لم تطر . ألا ترى كم هي سعيدة الآن ؟

صمت الصبي قليلاً قبل أن يتفوه :

- أتدري ، يا سعد !

- ماذا ؟!

- لا تبتعد عن الطيور ، راقبها باستمرار .

– لماذا ؟

– قبل يومين .. هناك في ذلك البستان كنت أرعى الخراف لمحتُ صياداً يمسك بندقية ، وعلى ظهره تتدلى شبكة تتحشر داخلها طيور مدماة ، فخذ حذرك .

– تقطب حاجبا سعد ، وانكمشت عيناه فتكشفت سيماء قلقة وشت بها ملامح وجهه الفتي .. تذكر انهُ سمع عصر أمس أطلاقة بندقية صيد قريبة تركت قلبَه ينتفض ، لكنّه نسيها بعد حين . لم يدُر في خلده اقتراب صياد من هنا .

الآن في هذه اللحظة لا يدري كيف رفعَ رأسه عن الصبي المتحدث ليرى إلى اهتزازاتٍ حذرةٍ عند أجمَّةٍ قريبة .

فجأةً وبحدسٍ لا يُخطىء ، وهاجسٍ انبثقَ للتوِّ تصلَّب في مكانه مُبيحاً للشحوبِ فرصةَ تسيّد وجهِه وللخوف انتصابَ شعرِه الأكراد . طافت في رأسه سحابةٌ من أسئلةٍ مريرة ، مربكة : تُرى هل سيفقد بسهولةٍ منقطعة النظيرِ مخلوقاتٍ كرّس لها جهدَه وصبرَه وكبرياءه ؟ وهل سينتهي كلُّ شيءٍ تحتَ سطوةِ الاغتيال والتجني ؟! .. لمح ثمة ماسورتين مزدوجتين تبرزان من بين أجمة كأنهما محجران في جمجمة ، خلفها تمثَّل رأسٌ لوجهٍ ملتحٍ وعينين وحشيتين واسعتين تتابعان هدفاً لم يستقر . همَّ بالصراخ ، لكنه أحس بكلابات جبروتية تطبقُ على لسانه فتعدم لديه النطق ، وترمي به في عبثِ اللاتوازن ، شاهد دعائمَ كبريائِه تتهشَّم ثم تتهاوى بانهيارٍ مفجعٍ يصل حدَّ البكاء .. وثب من على الشجرةِ ناسياً أو متناسياً وخزةَ ألمٍ حدثت له عند مِفصل قدمه . انطلق يعدو وبواعثُ اختلاجٍ تتفاقم في صدرِه وتدفع بذلك الذي بحجمِ العصفور كيما يستحيل شحنةً متفجِّرةً تمزِّق أضلاعَه وتخرج مُحيلةً الشُغاف سداً منيعاً يقطع على الرصاصةِ النافذةِ دربَ الوصول إلى هدفِها الدموي . صاحَ به الصبي الراعي مذعوراً : " سعد انتبه.. توقف ! " .

لم يتوقَّف سعدُ .. لم يتوقف أبداً .

أنّى له التوقف وقد عادَ إليه حلمٌ طافَ في رأسه ليلةً مرت به من قبل لمِح العقابَ مرةً أخرى : ذلك المنقار المعقوف ، وتلك النظرات الحادّة والمخالب المقوَّسة الشرسة .. لن يترك لقواه المبثوثة في ساقيه وسواعده البقاء كامنة .. إنها لحظاتُ إيقاظِها وشحذِها وتفجيرِها .

ركض صوبَ الغدير . كانت حماماته الآمنةُ قد تركت الماء للتو نافضةً عن ريشِها اللامع النظيف ما عُلق بها من ماء . طفق يعدو كالسهم .. بيد أن المسافة بينه وبينها أضحت تتمطّى .. تحوَّلَ عدوُه إلى قفزاتٍ وأياد مشرعة . صراخ رجاء ونجدة بأعلى ما تُطلقه حنجرته المختلجة التي خذلته بكلِّ قسوةٍ .. شعر بأنَّه يطير ، والشمسُ تغرز سهاماً من الأشعةِ اللاهبة في حدقتيه ، والعرقُ ينزُّ ويتصبَّبُ على جبينه ، منسرحاً إلى الرموش ، مستحيلاً قطراتٍ مضببةً شوَّهت لديه منظرَ البركةِ ومزارعَ الرز ، وحشودَ البساتين البعيدة ..

طارت الحماماتُ لحظةَ دوّى في أذنيه صدىً مرعبٌ وصوتُ ارتطامٍ تراخى بفعله رأسُه ، وتهاوى جسدُه .. تهاوى بخواءٍ وذبول ، فاحتوته أرضٌ نديةٌ يكسوها عشبٌ أخضرَ شمَّ فيه رائحةً غريبةً ، غامضة . لم تُسعفه ذاكرتُه المتقهقرة في تفسيرٍ لها : هل هي رائحةُ دمٍ ؟ رائحةُ غدر ، رائحةُ وأدِ أحلام ؟! ترقرقت دمعتان صافيتان عند طرفي حدقتيه وتبرعمت ابتسامةٌ وليدةٌ أخذت لها مساحةً على شفتيه اللتين زمّهما بقوةٍ عندما أبصر حماماته تحلِّق عالياً ، وتطوفُ حول غديرِ الماء في دوائرَ واسعةٍ ظنَّها ستستمر في تحليقِها معلنةً أبجدياتِ الفجيعة .. أتراها ؟!

لا يدري !.. سوى انّه حين أوشكَ على إغماضِ عينيه أحسَّ بالموجوداتِ تتَّشح بالسواد ، ويغرقُ الوجودُ في صمتٍ ثقيلٍ .. ثقيـ....ل .

آب / أوغست 1994

السماوة

رحيق الهمس

(1) أحلام مُشرعة

حين وطأتْ درجاتِ السلّم الثلاث وهبطتْ غمرتها ظُلمةُ الممرِّ الذي ولَجت فيه فعتَّمَ لديها الرؤيةَ وعزَت سببَ ذلك لوهجِ الشمس واحتفاءِ الظهيرة بشدّة الضوء اللذين خلّفتهما وراءها .

عمّاتُها تقدَّمنها وهُنَّ يطلبنَ الحذرَ في سيرها . قليلاً وأخرجنها من هيمنةِ الظُّلمةِ عندما دفعنَ البابَ الخشبي ليفاجئها الضوءُ الباهت المشبّع ببخارِ الماء الخارج من الباحةِ ذات الأخاديد المتلاصقة والسقفِ البيضوي المُقعَّر (مَن يظُن أنَّ هذا المكان قد شهِدَ حضورَ أمّها يوما ما منذ عشرين عاماً ، تحيطُها عمّاتها ، يسألنها الهبوطَ الوئيد على الدرجات ، ويبسملنَ لحظةَ الدخول في دائرةِ الظُلمة ؟!) .

دخلت ..

وعلى دكَّةٍ فُرشت بالبسطِ المقلَّمة النديّة شرعت بخلعِ ثيابها ... عيناها تتابعان حركة المُستَحمّات الخارجات توّاً من الدهليز الساخن : حمراوات / محتقنات / مسلوخات ؛ أو اللاتي جلسنَ يثرثرنَ بينما أياديهنَّ تُقشِّر برتقالاتٍ تناولنها من بين ثنايا ملابس مكوّرة تلفُّها قطعةٌ مربعةٌ من قماشِ قطيفةٍ سميك ... إحدى عمّاتها أخذت بيدِها ثم سارت بها . كذلكَ لحِقنّ بها الأُخريات . وعبرَ انعطافةٍ معتمة ، ودفعةِ باب ثانية وجدت نفسها بمواجهةِ بخارٍ ثقيلٍ يهيمن على مصابيحَ صفر تجاهد في ضخِّ الضوءِ كي ما يشغل فضاءً أوسع . نظراتُها سقطت على هياكلَ لحميةٍ تقتعد مربعاتٍ مرمرية تحاذي أحواضاً صغيرة وتتّكىء على جدرانٍ مطليّةٍ بلونٍ يحاول لملمةَ الضوء الشحيح الناضح عليه .... عمّاتُها أومأن إلى حوضٍ قريب . أجلسنها هنالك ؛ وبحركةٍ تبعث على الاهتمام رحنَ يتحلّقنَ حولها : البخارُ ، والماءُ ، والأيدي ، والضوءُ الشحيح كلها ساهمت في قُدّاس التطهيرِ الذي ابتدأ بغسلِ شعرِها الغزير المطلي بالحناء المتيبسة التي خضّبته منذ الصباح . ثم جاء دور " الليفة" المغموسة برغوة الصابون ، مارّةً على روضِ الجسد الفتي .. أغمضت عينيها ؛ أغمضتهما [رأيت أمّي تجرُّني ، ووجلُ الطفولة / الخوفُ من العتمة ، من البخار الكثيف ، من الأماكن الشاحبة يرمي بشباكِه الكابوسية الثقيلة . أسحب نفسي فتحسُّ أمّي بخوفي ، لكنّها تجرّني بقبضتها الحازمة . تعالي ، تقول : سأُريكِ الفتيات اللاتي سيصبحنَ عروسات بعد أيام . وأدخل ...] . وعلى أنغامِ همسٍ خفيض وأصواتٍ حميميةٍ متحاورة أطلَقَتْ أسرَ أجفانِها المُطبقة . تلقّت عيناها حفاوةُ الوجوه المبتهجة ، والعيونُ المشرعة الطافحةُ بالدهشة والتبجيل ، سابحةً في خضم سديمٍ ينضحُ من شقوقِ الجدران المُضببّة ، والأرضية المُحززَّة _ وهي تحت جبروتِ خدرٍ ما يزال يفرض سطوتَه في كيانها _ ويرتفع . فوجئت به يتكثّف ؛ يستحيل أجنحةً رحيقية تحيط بها ؛ ترفعها شيئاً فشيئاً ، وعمّاتها بعينِ الدهَشِ يتطلّعنَ إليها ، [آ ، يا عمّاتي : هي ذي أثماري تنضج والعبقُ يضوع .. أنتنّ تنظُرنَ ، وأنا أطير !!]

.. فوق ، هي تحلِّق ونداءٌ خفي يأتيها من بين حشودِ الضباب أنْ تعالي .. تعالي ووجهٌ دافقٌ بالرغبة / طافحٌ بالشوق .(نعم .. نعم ، هو ذلك الوجه أعطتها قسماته تلك المرأة ذات الوجه الأسمر الداكن والعينين النافذتين وهي تمسك بطرف كفِّها المنبسطة ؛ مُحدِّقةً في ابتداءات الخطوط المنحنية أو المتقاطعة ومنتهياتها ، قائلةً هو ذا سعدك .) . أخذها بعيداً . ومثل فراشتين أثقلهما وطءُ الرحيق المحتشد في قلبيهما حلّقا مبتعِدَين .. تتوالى الصور الجنائنية عبر خياليهما المتحررين .. أفردت ذراعيها بينما هو مقترباً يبغي احتضانها . على ظهر السحاب ارتقيا . ضمّها إلى صدره ، وعلى ضربات قلبِه المنغمة راحت تنعُم بـ : إغفاءةٍ / هدوءٍ / طمأنينةٍ ، وانتشاء ... وآ ؛ كم من الزمن الهارب من عمرِ الوَجد صرفتْ ؟! كم من الأمنيات الطافحة بالود للآتيات من الأيام رسمت ؟! كم من الأحلام المُعشبة تركتها تُعرِّش تحت أجفانها ؟! كم .. وكم ؟! . لا تدري سوى أنها أفاقت إثر لمسةٍ على كتفها ، ورجاءٍ ودودٍ من عمّاتها أن تنهض .

حين تطلّعت لم تشاهد أثراً للكتلِ اللحميّة على المقاعدِ المرمرية ، ولم يكن الضبابُ بالكثافةِ التي تاهت بها ، بل اكتشفت جسدَها وقد صار بُرعماً نضِراً ، ممتلِئاً ، ومتطهِّراً .

(2) أمنيات خُضر

في ذلكَ البيت الذي يتوسّطهُ فناءٌ وسيع فُرِشت أرضُه بالسجادِ المخملي والبُسط المقلَّمة ، ونُثرت عليها مقاعدُ الاتكاء المربَّعة تعالت الزغاريدُ وارتفعت ترانيمُ الأشعارِ المُعدّةِ مُسبقاً من أفواهٍ تجانست في نبراتِها واستحالت صوتاً غنائياً متناغماً استحسنتها مسامعُ الجالساتِ أو الواقفاتِ اللواتي لم يحصلنَ على مكانٍ بينما كانت أقداحُ الليمونِ توزّع عليهن وتتناول بعضُها أيدي الصغار المتتبعين لحركة " الصواني " المليئة .. وبين هذا وذاك كانت أغلبُ المحتفياتِ بانتظارِ شيء ما ، ولأسبابٍ لا يعرفنّها رحن يتحدَّثنَّ ويتمتمنَ لاهياتٍ عن جوقةِ الفتياتِ المنهمكاتِ في تناولِ الأشعارِ والانتقالِ من بستةٍ لأخرى . وبلمحةٍ انطلقت زغردةٌ حادّة جعلت الرؤوسَ تستدير ، وتسقُط الأنظارُ على قوامٍ رقيقٍ لفتاةٍ خرجت من غرفةٍ جانبيةٍ موشّحة بفستانٍ بهيجٍ من الحريرِ الأبيض اللامع ثم تتركّز على الوجه المستدير وقد تجلّت فيه العينان الواسعتان وهما تسكبان خجلاً لم تقدِر الفرحةُ على سعتِها أنْ تخفيه ، والشفتان البضّتان اللتان عمَّقت صبغة " الروج " الحمراء ارتواءَهما .. كانت الطرحةُ المتوّجة لقمّةِ رأسها صغيرةً استحسنت العيونُ المتطلّعة شكلَها المعمول بهيئةِ زهرةٍ بيضاء رائقة ؛ فلولا هذا الحجم لأخفت ذلك الشعرَ المنسدل ، المخضّبَ بالحنّاء ، ولاغتالت شلالاتِ الضوء المنهمر بانسيابيةٍ حتى أسفل الكتفين .. ولا تعرف الفتاةُ من أين انطلقت الزغاريدُ بهذه الكثافة والتواصل ، وعجَّ بها فناءُ الدار وتركتها تكتشف نفسها طافيةً على تموّجات نغميةٍ لأصواتٍ نسائية متوافقة ، وصفقات أيدٍ رقيقة ناعمة ، تتآلف مع تراتيلَ كانت تسمعها وهي صغيرة تتشبث بأذيالِ أمّها في أفراحِ الحي ومباهجِه .. وها هي الآن تتسكبُ بذات النغمِ وفيضِ المفردات في مسامِعها فأدركت حلاوتَها وطيبَ نكهتِها الغريبتين وهما تسريان عبر مفارقَ روحِها التي تحسّها الآن كفراشةٍ جذلة تحلّق في عالمٍ حلميٍ عذب ، توجِّه إليها كؤوسُ الأزهار دعوةَ ارتشافِ الرحيق ، وتباركها الأنسامُ بطراوةِ أنفاسٍ عبقةٍ معطَّرة

بأريجٍ يبعث على الخدرِ والتحليق الوئيد ... تحركت فوقَ مداد من عيونٍ مُحدِّقة تحفّها غلالاتُ الدهشة ؛ وسمعت من يهمس في أذنِها : " مباركٌ لكِ هذا اليوم " و " يا لسعادة العروسات وهناء العرسان " ، فأرادت التفوّهَ بكلامٍ يفعمه الشكرُ وتضمّخه الأمنياتُ لهنَّ بالسعدِ ، لكنَّها لم تقدر . فقد سحبتها يدٌ من بين المحتشدات وأجلستها على كرسي متعالٍ بمحاذاةِ الجدار ، وتطلّعت في الوجوه لتميّز صاحبةَ الصوت الذي همسَ لها ، لكنَّها لم تجدها . صار كلُّ ما أمامها يرنو إليها وأحسّت كأنَّ جميعَ الشفاه التي تنشر على وجهِها الزغاريد والأشعار هي التي همست في إذنها ذات الهمس .. وترجمت في قرارةِ نفسها ذلك الشعور الذي كان يراودها ؛ وفسَّرت إنَّ مَن يحطنَ بها فتيات ينتظرنَ الهلالَ الذي لا يدرين متى يمتشق سيفَ النور ليخرج إليهن وينتشلهن من واقعِ الآمال إلى أديم الواقع ، فتمتمت بصوتٍ خفيض :

_ صبراً ، صبراً . فالأيامُ الخضراء آتية ، وفرسانُ الأحلام هم الآن في رحلةِ المجيء .

(3) قنـاعة

تلتقيهنَّ في الزقاق ، أو تواجههن وهنَّ يتكوَّرن فوق دكّاتِ البيوت .. صرن عوانسَ مُقيتات بينما هي تحتضن صغيرَها وهمسُ مناغاتِه ينبعثُ من بين شفتيه الغضتين لينغِّم مسامِعها ، ويمنحها سعادةً بلا حدود ، تطوِّقُها العيون المكبَّلة بأصفادِ غضونٍ زرق أو سود (كُنَّ يقارينها العمر ، وكانت أثيرةً لهنَّ مثلما هنَّ أثيرات لديها ، لكنَّ للكبرياءِ جرثومةٌ تفتك بجسدِ القناعةِ اليافع ، وللنرجسيةِ معوَلٌ يهشِّم جدارَ الرضا والقبول بما مقسوم) تتباهى اليوم أمامهن ، والبدلةُ الزرقاء غسلتها وعلَّقتها على حبلِ الغسيل نظيفةً تعبقُ بعرقِ جسدٍ رجولي ، وذراعين مفتولين .. وهي إذْ تذهب الآن لزيارةِ أهلِها فانَّ الشوقَ يحدوها للعودةِ سريعاً إلى بيتِها كي تكون بانتظارِ طلعتهُ التي تنشر حناناً وألفةً على المكان .. تراهنَّ ، تلاحقُه عيونُهن النكدة بخروجِه وعودتِه وهنَّ يسكبنَ حسراتٍ وحسداً ورغائبَ في أنْ تنهل حدقاتُهن من هيبته بعد ما كُنَّ يرمقنه بنظراتٍ دنيا ، فلا يَحسبن له حسابَ التطلُّعِ شوقاً . وقطعاً لم يكن يوماً من الأيامِ فارساً لأحلامِ إحداهن (ضحكن حين أباحت لهنَّ بمقدمهِ وأهلِه للاقتران بها ، وتأسَّين عليها وهي تُعلن القبول ، ثم انسحبن عنها عندما صارت قرينةً له .. بتنَ يتثاقلن لمقدمِها وربما احتسابها عيباً ، فابتعدنَ) وكلّما فعلنَ ذلك كانت هيَ تزدادُ كبرياءً ، وتعجُّ في فناء بيتِها عصافيرُ تبني أعشاشاً ، تتزاوج ، تتكاثر ، ثم تحلِّق في سماءِ تفرد ذراعيها شغفاً وترحاباً .

هي كلّ صباح تلاحقه بنظراتٍ حنون خارجاً ببدلته ِ الزرقاء النظيفة . ترشُّ الماءَ على عتبةِ الباب عندما يبتعد ويغيّبه الزقاق .. وعند الغروب تستعدُّ لمقدمِه : عيونٌ تنتظر ، وقلبٌ يلوب ، ولسانٌ يهتف : متى تعود ؟! . وحينما يُظهره فمُ الزقاق من بعيد تبتهجُ لصورته وتطفحُ ابتسامةُ شكرٍ ودعاءٍ للذي أعاده مثلما خرج . ترمي رأسَها على صدرِه هامسةً : يا خيمتي ، ويا طمأنينتي .. تمسحُ وجهَها ببدلتِه المضمخة بالدهان ، بينما تتابعُها

بغيظٍ عيونٌ تتكمش شيئاً فشيئاً ، لا تُطيق التطلُّع فتندحر منهزمةً ، كسيرةً خائبة خلف الأبواب التي يُسمع اصطفاقُها _ كعواءٍ _ على امتدادِ الزقاق .

آذار / مارس 1989

السماوة

ذاكرة الأرض

بعد أنْ يكون ظلُّ الغرفةِ في الخارج قد تراجعَ منحسراً ، والهواءُ قد سخنت ذرّاته والسكون صارَ ربُّ البيت ، أكونُ أنا قد استيقظت ؛ فلا أجد أمّي . وأعرفُ أنها خلفَ التنّور المنتصب خارجَ الدار تُلقمه حطباً لتصنع رغيفاً ، وأُختاي وقد خرجتا تجمعان " العاقول " و" العلّيق " ، وتأتيان به أكواماً على رأسيهما من شريط الأرض ، وراء سكّة القطار المار عبر أراضي قريتنا .. وقتها أنهضُ فأغسلُ وجهي من " ناقوط الحِب " (قرأتُ في كتاب العلوم المدرسي أنَّ الماءَ الراشح في الناقوط أنقى وأصفى من ماءِ الحِبِّ نفسه) .. أهفو لملء معدتي منه فيتردد صدى صوت أمي تحذرني لا تقترب منه ، فالدجاجات دسّت مناقيرَها ودفعت القططُ ألسنتها فلعقت . وكذلك فعلت الكلبةُ وجراؤها) وأجد أمي قد تركت إبريقَ الشاي وفي قعره شايٌ فقدَ حرارتَه في موقدٍ تحوَّل حطبُه إلى رماد .. أرفعه وأخرج .. تشاهدني أمّي فتأخذه من يدي .. تدفعه إلى جوفِ التنور .. لحظات وتخرجه يغلي ، وفي يدها الأخرى تسلّمني نصفَ رغيف ساخن .. أعود إلى مكاني . أسكبُ الشاي في القدح ، وأتبعه بملعقتي سكّر كبيرتين .. أروحُ أقضمُ الرغيفَ وارتشفُ الشايَ ، أقضمُ وأرتشف . أقضمُ وأرتشف . الدجاجُ يدنو بحذر ، ويفرُّ لأيّ حركةٍ تبدرُ مني . وقطٌّ تحت حرِّ الشمس يقعي . يتطلَّع بعينين شبه مغمضتين .

اليوم استيقظتُ على أصوات تتحاور في حوش الدار .. رفعتُ رأسي فأبصرتُ خطَ اقتراب الشمس ما زال بعيداً ، وأنسام الهواء تتكاثف باردةً طرية . سمعتُ أمي تكلِّمها إحدى أخواتي بارتباك فتقول :

_ وجدوه منكفئاً في بركةِ الماء الضحلة خارج القرية .. بدلته وقميصه وربطة عنقه تلوّثت بالدماء والوحل .

صرخت أمي فزعةً منشدِهةً :

_ ومن قامَ بهذه الفعلة المريعة ؟!

_ كيف لنا أن نعرف ؟! .. باقتضابٍ ردَّت أختي الثانية .. قالت ذلك وخطت تتبعُ أختي الأخرى التي سبقتها في الخروج .

تمتمت أمي وصوتُها يختلج :

_ مسكين جبار ، قتلتَ نفسَك بيدك .

هتفتُ ناطّاً من فراشي :

_ ماذا قلتِ ، يا أمي ؟!

لم تجبني . كانت قد خرجت في أعقاب أختيَّ ، تتطلَّع إلى حركةِ الناس الوجلةِ باتجاه مكانِ بركة الماء .

(كان نهاراً ضاحكاً ، رائقاً ، يضوع هواؤه بشذى الحنطة المحصودة توّاً .. أنسامُه دافئةٌ ، انعتقت من بردِ الشتاء .. رأيت أبي في حركةٍ أيقظت انتباهي .. لم يذهب ذلك الصباح إلى الأرضِ لإكمال حصادِ الحنطة ، بل ارتدى ثوباً قطنياً أبيض ، وسترةً كحلية أخرجتها أمي من صندوق حديدي تحتفظ بهما . ومن صندوق آخر أخرجت عباءةً شفّافة بلون الحنّاء ، تساقطت منها حين نشرها كراتٌ بيضاء لها رائحة غريبة .. خرج أبي مسرعاً .. استفسرتُ من أمي . قالت :

_ هرع أغلب رجال القرية يستقبلون جباراً .

_ ومن هو جبار ؟

_ واحدٌ من رجال قريتنا .. رحلَ إلى المدينةِ منذ عشر سنوات كان صاحب حظوة .. الأخبارُ تقول أنَّ اللَّه فتحها بوجههِ هناك صارَ غنيّاً ميسورا . بنى علاقاتٍ واسعةً مع تجّارِ المدينة ووجهائها . أخيراً قررَّ العودةَ إلى قريتِه ؛ إلى أرضِه . الذين قابلوهُ في المدينة قالوا أنّه سيخدمُ القريةَ وأهلَها .

_ وهل له أهلٌ هنا ؟ .. سألتُ أمّي .

_ ولِمَ لا ؟ .. ألا تعرف أم جبار ؟

_ العجوز صاحبةُ الغرفة المجاورة لبيت كريم ..

_ صحيح ، وكريم هو زوج ابنتها .

صمتت قليلاً ، ثم كأنها تذكّرت شيئاً :

_ كنتَ بعمرِ عشرةَ أشهر عندما تركَ القرية . كان صديقاً لأبيك . وكان أبوك يُجزي له المساعدةَ حينما لا يجدها عند أحد . كان يبتهج لرؤيتِك ؛ وكنتَ تضحك في وجهِه فيحملُك ويُشبعك بالقبلات .)

أسحبُ الغطاءَ من جديد ؛ أدسُّ وجهي تحتَ الوسادة . أدعو سلطانَ النوم ليتسللَّ إلى رأسي فيأبى . أقول في نفسي ما أزال راغباً في إغفاءةٍ تطوّح بيقظتي .. تصرخ بي نفسي مُعنِّفةً / ضجِرة : يا لخمولِك وتكاسلك . انّهض ؛ الدنيا تكاد تنقلب ، فأنهَضُ .. أرمي الغطاءَ جانباً . أقفزُ إلى وسط الحوش . يتناثر الدجاجُ فزعاً ، وأخرج فلا أجد أمّي ولا أثر لأختيَّ .. أُشاهد صبيين يحثّان الخطى . يكادان يتعثران . يرفع أحدُهما طرف ثوبه بيده . يلتفت الثاني فيراني .. أصيح :

_ فاضل .. ستار ، إلى أين ذاهبان ؟

يجيبني الأول :

_ لا تتغافل ! لم يبق أحدٌ إلاّ وعرف ما حدث هناك .

أنظرُ.. أبصرُ حشداً في المدى البعيد يدبُّ نحو بركةِ الماء الضحلة . هناك حيث نذهبُ عادةً لاصطياد الضفادع التي تؤرقنا طوالَ الليل فنقطِّع أوصالَها تشفياً واستهجاناً .. أقتربُ منهما .

_ أتقبلان بمصاحبتكما ؟

_ بشرط أنْ لا تخاف عندما ترى الدماء .

(لم يعد جبار بالكوفيّة والعقال اللذين غادرَ بهما القرية . بل عاد ببدلةٍ كستنائية حديثة ، وربطةِ عنقٍ يلتمع وسطَها بريقٌ من دبّوسٍ ذهبي .. بهت الجميعُ للمرأى .. كم تغير وجه جبار الأسمر الكالح ؟ كيف اختفى الخطّان الشاقوليان النازلان عبر وجنتيه ؟ وكيف غدا ذلك الوجه ممتلئاً ؟ كيف تبددت الصفرةُ الراكدةُ تحت البشرة واستحالت لوناً حيوياً طافحاً بالبِشر ؟ لقد بدا وسيماً ، أنيقاً ، واثقاً .

يوم أو يومان ووصل إلى كلِّ بيت كيسٌ مغلَّفٌ بورقٍ أصفرَ صقيل ، كأنه مطليٌّ بترابِ الذهب ، ملفوفٌ بخيوطٍ رصاصية .. بامتنانٍ صادقٍ ودودٍ قال الجميع إنها هدايا جبار ، وهبَها عرفاناً وجميلاً لأهلِّ قريته .. لم يبقَ صبيٌّ أو صبيّةٌ ، طفلٌ أو طفلةٌ إلا ونالَ مما جاء به جبار .. يومها صارت الشمسُ أكثر إشراقاً في عيوننِا ، والمزارعُ أينعَ وأبهى ، والسواقي أوفرَ مياهاً وأعذب .

قالت النساءُ : هي ذي حلاوة المدينة .

وقالت الفتياتُ اليانعات : يا لتعاسة حظنا .

وقال الصغار : ليتنا عشنا هناك .

عجبُ الكثيرُ من الرجال وشكّكَ البعضُ الآخر (قرأتُ في عمود مَجلةٍ غلَّفتُ بها كتابَ التاريخ : لا يحتاج الإعجاب إلا لعمل غير مألوف ، وحدثٍ غريب الوقوع .. وعن الشكِّ قرأتُ انّه بحاجة إلى يقين . وإدراك اليقين ليس من اليسير الرسو عند مرافئه . إنه بحاجة إلى دراية ، وتتبُّع واستقصاء)

مرت الأيام سِراعاً ، وتراكمت فوقَها الأسابيعُ .. تسللَّ إلى المسامعِ خبرٌ حُسبَ وقتها عادياً رُغم أنه غير مألوف . راغب الكاظم يبيع دونماته الخمس عشرة ويرحل .. قال الذين شاهدوه أنَّ سيارتين فارهتين توقفتا في

مدخلِ مزرعته ، فخرج من ظلِّ شجرة توت راغب الكاظم وجبار . هرع الاثنان . بانحناء متكلِّف استقبلا مَن هبط من السيارتين .. كانوا أربعةَ رجالٍ ، تربَّعوا على أفرشةٍ صوفية . تبودلت ابتسامات لا تجانس بينها . تحركت الشفاه ، تبعتها الأيادي .. حِزم أوراق زرقاء وحمراء وخضراء انتقلت من يدٍ إلى يد .. بعد وقتٍ قصير جداً انتقل القمرُ من صوبٍ لآخر . ويوم أو يومان تلاشيا ، خلّفا إثرهما طوقاً ضُرب على الدونمات الخمس عشرة .. استحال راغبُ الكاظم جراءها مضغةً تلوكُها الألسن :

_ حيثما تنهض دِلالُ القهوةِ وتُدار في الفناجين .

_ وحيثما تلتقي الوجوهُ في الدروب ، أو في سيارةٍ نازلة إلى المدينة أو عائدة منها .

_ وحيثما يتدفَّقُ الماءُ من السواقي في فوَّهات القِرب والجِرار المتدلية من أيادي المالئات وهنَّ يلتقين لقاءً شبه يومي .

ثم تعاقبت الحكايات .

حكاياتٌ أشدُّ طراوة :

_ حكاية تقول أنَّ بابَ راغب الكاظم كانت تُطرق بين الحين والحين ليلاً ، لأفواهٍ تسأل وتستفهم ، وراغب الكاظم يُسمعهم قرقعةَ الأوراق الصقيلة ، قائلاً : هذا أبلغُ جوابٍ لاستفساراتكم .

_ وحكاية تقول أنَّ بعضَهم والخجل يحاصرُه ، وللحياء بقيّةٌ فيه ، فضّل البيعَ في المدينة دونَ العودةِ إلى القرية . ففي القرية ستواجهُه عيونُ العتاب واللومِ والتقريع .

- وآخرُ حكاية شاعت تقول : إنَّ الأوراقَ الملوَّنة التي دسَّها راغب الكاظم تحت إبطه ورحل في ليلة يغشاها الظلامُ العسير طفقت تتسرَّب من بين أصابعه كأوراقِ شجرةِ توت عصفت بها ريحٌ خريفية .

ويوماً بعد آخر استحالت الحكاياتُ مجرّدَ مرارةٍ تلوذُ كامنةً في زوايا الأفواه ، وضوءً كابياً يبهت في الذاكرة .. لكنَّ الأخبارَ ظلت تشيرُ إلى أنَّ جباراً كان ينزل إلى المدينة ويعود مع وجوهٍ شرهةٍ لها عيونٌ ذئبيةٌ ماكرةٌ ، تتفحَّصُ حقولَنا الخضراء ، ثم لا تلبث أن تقفل عائدةً وفي أقحافِ رؤوسها مشاريعُ سوداء ، ومسالكٌ خبيئة ، مدلهمّة تشيُّعها انحناءاتُ جبار وكلماتُه المتهالكةُ المتوسلة .. كنَّا ونحن نبصره من بعيد نحسبُ فعلتَه من بابِ الاحترام والكرمِ الريفي ، غير أنَّ الكبارَ من أهلِنا ما ظنوا ذلك على الإطلاق . " .

انحرف الدربُ الذي تلقَّف أقدامَنا يميناً بعد مسافةِ نصف ميل .. اجتزنا امرأتين عجوزين تسحب إحداهما حبلاً مُعلقاً برقبة مَطيّة . تمتمتا بكلامٍ لم نسمعه وهما تنظران :

_ إلى فاختةٍ على سعفةِ نخلةٍ تنوحُ بشجن .

_ والى ساقيةٍ قُطعَ عنها الماء فتعسَّرت عطشاً .

_ والى بضعةِ رؤوسٍ من الأغنام والماعز حُصرت في شريطٍ عشبي .

_ والى بساتين بعيدة طوّقتّها أسيجةٌ من أسلاكٍ غريبة .

وبين هذا وذاك كان الصمتُ المشوبُ بالتفكير والتهجُس يطوِّح بأحلامِنا الطليقة .. تأفّف فاضل وعيناه توشيان بتذمرٍ صارخ :

_ لقد زرعوا الأسلاكَ في كلِّ مكان .. أين سنلعب بعد عام ؟!

صرخ ستار :

_ لماذا تركتم عمَّك يبيع أرضه ؟ .. ها ؟

انتفض فاضل يدافع :

_ زعلَ أبي عليه وغضب ، حوَّله غضبُه إلى إنسانٍ آخر . قال له فعلتُكَ لا يفعلها إلا المجانين . كان عمي وقتها لا يسمع ولا يرى . قال كلاما جعل أبي يتفاقم سُخطاً ومرارة ، صرخ في وجهه ، والزَبدُ يتطاير من فمِه لا بدَّ للمتسببِّ من جَزاء .. من أينَ جاءنا هذا الجبِ.....

دفقٌ من الزهو أفعمَ قلبي . طافت فوقَ رأسي سحابةٌ من النشوةِ .. على الدوام كنتُ أسمع أبي يُكلّم أمّي ويقول في أرضنا دفءٌ لولاه لانسحقنا تحت صقيعِ الغربة .. يصمت قليلاً، فيتساءل : ما بال هؤلاءِ الناس فقدوا الأيمانَ فماتت بصيرتُهم .

وتذكّرت مرّةً كيف عادَ أبي غاضباً ، منزعجاً يُسمع أمّي كلاماً تغلّفه السخريةُ ونفاذُ الصبر ، فيقول :

_ تصوَّري ، يأتي جبار دونَ خجلٍ يعرض عليَّ بيع الأرض لأناس لا أصول لهم .

يهز أبي رأسَه ، وأسفٌ تبوح به عيناه . يتمتم : لقد تنكَّر هذا الإنسان لأفضالنا عليه .

لاح لنا جمعٌ غفيرٌ من الناس تحيطُ بالبركة .. الصبيةُ فيهم الأشدُّ فضولاً .. عيونٌ قلقةٌ مستريبةٌ تطفح خوفاً وتوتراً .. ينطعن فضولُهم فينفضُّ جمعهم ، ويتقافزون كقطيعِ غزلان سمع على حين غُرّة صدى أطلاقةَ صياد .. تقدَّمنا بحذرٍ .. صرنا على بعدِ خطوات . لمحنا شرطياً يمسك عصا ، وعرفنا انه أطلاقة الصياد .. لم نرَ كما يُفترض _ السيارات الفارهة وذوي الوجوه الشرهة ، بل رأينا ثمَّة سيارةً خضراء داكنة ، مكشوفة ، وقف إلى جانبها شرطيٌّ .. بحذرٍ واحتراسٍ تنقّلت خطانا حتى امتزجت مع الخطى المستريبة .. نططّنا برؤوسنا ، واقفين على أطراف أصابعنا ، ومتكئين على مَن هم أمامنا .. كانت البركةُ بعيدة نوعاً ما ، وعند طرفِها ثمّة رجلٌ طويل

تستقر على كتفيه نجيمات بيضاء يتحرك ببطء متفحصا جثةَ القتيل عن بُعد .. كانت الجثةُ غاطسةً في الماء ، لم ينكشف من الوجه سوى الجبهةُ وبروزُ الأنف والفمُ الفاغر وقد احتواه الماء فغمره . ومن الجذع الصدرُ المطعون ، وأطرافُ خِرقٍ ممزّقة من بدلته .

بين خوفِنا المتأجج وارتباكِنا الطافح ، تطلعنا وهمسُنا الحائر شاهدنا شرطيين أحدهما الذي كان يمسك بالعصا ويبعد الناس ينزلان إلى البركة بإشارةٍ من الرجلِ الضابط .. خاضا في مائها الملوث بالطين والدم .. أمسكا الجثّةَ ورفعاها . بدت الجثةُ ثقيلةً إلى درجةِ أنَّ الشرطيين أنزلاها إلى الماء مرتين قبل أن يدركا الأرضَ ويضعانها ... تقلّصت المسافة بين الحشد وحافة البُركة .. اقتربنا أكثر . صارت صورةُ جبار بجسده المتفكك أشد وضوحاً .

حدَّقتُ في وجهه . لم تكن سحنتُه تُشبه ملامحَ رجالِ قريتنا . لقد انطفأت عيناه ، واختفت الابتسامةُ المتميّزة منه ، وحلَّت مكانَها تكشيرةٌ غريبة . كانت طعناتُ الخنجر في رقبته _ كما خيل لي _ كتلك التي غرزها أبي في عنقِ لصٍّ دخيلٍ تسلَّق ذات ليلةٍ شتويةٍ عاصفة حظيرةَ الشياه الملاصقة لدارنا .. هاجسٌ مثل غيمةٍ تحبو من أفق مُدلهمٍّ دبَّ في رأسي .. تسللتُ من بين ثنايا الحشد .. سلكتُ درباً لا أدري كيف جعلني على أعتابِ البيت . دلفتُ إلى الدار ، ومنها إلى غرفةِ أبي دون أن التفت إلى أين تكون أمّي أو أختاي .. أولُّ شيء عملتهُ هو أني هرعت إلى فراشِ أبي .. رفعتُ الوسادةَ .. لم تكن الدهشةُ وحدها التي ألقت بشباكِها على مكامِن روحي ، بل الحيرةُ والشكُّ والاستغراب .

لم يكن خنجره الفضّي هناك !

أتراه ... ؟!

انتظرنا لما بعدَ الظهر ، وعندَ الغروب ، واليوم التالي .. لم يعُد أبي ..

حزِنت أمي . وبكَت أختاي . وتأسّيتُ أنا .

حشودٌ من ألسنةِ اللهب غزت دواخلَنا .. تراكمٌ هائلٌ من الأفكار السوداء اكتسحَ نفوسَنا التعبى .. لكنَّ ما كان يخفّف من ذلك ويبدِّدها من صدورِنا ما جاءنا من أخبارِ المدينة من أنَّ أبي لوى قضبانَ حديدِ سجنه مرتين ، وقطعَ الحبلَ المشدود إلى عنقه ، ثم انسلَّ كالدخان .. من يومِها والأسلاكُ المضروبة على معاصمَ الأرضِ تتقطَّع ، والأسيجةُ الملتفَّة حول أعناقِها تتهدَّم .. تتنفسُ المزارعُ شهيقَ الرواء ، وتمتلك أجنحةَ الاتحاد متواصلةً مع خيوط الشمس .

كانون ثاني 1987

السماوة

آهٍ ، نجـاة ..

نستقبلُها بشغفِ الملهوفين ، وتلتهمُ عيونُنا الرابضةُ فوقَ الحُجرات الطينية أو على الدكّات الأسمنتية وجهَها المبتسم حدَّ الوله .. تضحكُ لنا من وراء الأفق فتتولّى رموشُنا مهمّةَ الرد باهتزازاتٍ خاطفة . هي الشمسُ ونحنُ الصبيةُ الزُعاة . مواشينا في عهدتِنا ، ونجاة كالشمسِ تُبهرني بطلعتها . كلَّ صباحِ أنتظرُها عند الشريط العشبي ، خلفَ الروف .. أعاتبُها إنْ تأخرتْ فتضحك ، وفي كلِّ مرَّةٍ تُجيب : أنتَ في الثانية عشرة وأنا أسبقك بثلاث سنوات ، أنتَ ولد وأنا بنت ، أنتَ تنهض من نومِك وتأتي بأغنامِك ، وأنا أنهضُ من نومي فآتي بالماء من الساقية ، وأجمعُ الحطبَ وأغسلُ صحونَ الشاي وأقداحَها ، وأشعلُ نارَ الموقد قبل أن آتي بالشياه من خلفِ الدار وأجيء إلى هنا .. نذهبُ إلى حيثُ النخلة المنتصبة قريباً من الشريط الرملي المحاذي للنهر فنجلسُ في ظلها .. أنظارنا تطالُع الفرات ، وتمسحُ الضفافَ ثم تستقر على طيورٍ تقف عند الجرف ، تثير فضولنا بأشكالِها البيض ومناقيرِها الطويلة ، وسيقانِها المستدقَّة . تقول نجاة : عجيب أمر هذه البجعات لا تأتي إلا في الربيع ، ولا تأكلُ إلا السمك ، هي مولعةٌ في الرحيلِ وتطيرُ لأي مكان تستأنسُ فيه .. نعدو إليها لكنَّها تطير عند اقترابنا . تصفقُ بأجنحتِها وتروحُ محلِّقةً صعوداً إلى السماء ، مستحيلةً كتلاً ضوئية تندفعُ ببريقٍ آخّاذ .. ينكمشُ وجُه نجاة وتضيقُ عيناها ، وكالحالمةِ أسمعُها تهمس : انظر إليها ، طيورٌ حرّةٌ ترفض أن يمتلكها أحد ، بل هي تملكُ الدنيا كلَّها .. ألا تُحِب أن تكون طيراً ؟.. أخلع ثوبي ونعليَّ واندفعُ إلى الماء وأرتمي .. أقول : أحبُّ أن أكونَ كالسمكة ، هكذا أعوم .. تعالي معي نزيل لدغات البعوض ولسعات الحرمس ، وترابَ وسائدِنا الغبراء .. تعالي يا نجاة ، تعالي لا تسخري مني _ أنتِ تحلمين بالطيورِ والطيران ، وأنا أحلمُ بالنهر وأسماكه ، أغوصُ معها وأصاحبُ أسرابها ، أبحثُ عن قواقعِ الأعماق ، وألاحقُ السلاحفَ السابحةَ بمجاذيف أقدامِها القصيرة . تعالي يا نجاة ، تعالي .. تركضُ نجاة تعدو ولكن ليس باتجاهي ، بل صوبَ صخرةٍ ملساء تعلو عن الجرف . تتوقف عندها ثم تجلس فوقها .. تدفع ذراعيها إلى الماء وتغرفُ منه بيدين مصفوفتين تدلقُه على وجهِها فينساب على بشرتِها مبلّلاً حاجبيها السوداوين ورموشِ عينيها النافرة ماراً على شفتيها المزمومتين ، منسرحاً على رقبتِها السمراء . وكما لو أني أراها لأول مرة أكتشف كم هي جميلة ، رهيفة ، نضرة .. واعترف أني اكتشفتُها تزيد من الاهتمام بنفسِها هذه الأيام _ وحين تنهض كانت تسيرُ بخطوات متكلِّفةٍ وبحركاتٍ تتأمل فيها تمايلَ جسدِها .

أقول : نجاة أنتِ تمشين كالبطّة .

وأقول : لو شاهدكِ غيري لحسبكِ من بناتِ المدينة .

وأقول : لو كنتِ أختي لقتلتكِ .

وأقول : آه لو رأتكِ جدَّتُكِ .

فتضحك نجاة .. تضحك وهي تخطو لمسافةٍ كأنها تبغي تركي ، ثم تستدير بحركةٍ غريبة .. ومن بعيد نلمحُ (كريم) يقف عند جادَّة الروف يبغي النزول إلى المدينة .. كريم يكبرني بسنوات ، وكذلك يكبر نجاة .. هو أخو (عطوي) الأصغر . منذ كان بعمري الآن أخذه أبوه إلى المدينة ، شغَّلهُ هناك صانعاً عند حلاّق ، ذلك جعله يتهندم ، يلبسُ السترةَ والبنطلون ، ويصفّف شعرَه جيداً ويتصرَّف كالكبار .. ونجاة تتصرفُ بغرابةٍ عندما تلمحه .. تتطلع إليه وتخطو كالقطّةِ أمامه ، لكنّه لا يعيرها اهتمامه .. يصعد باصَ القرية دون أنْ ينظر إليها ، فأبصرُ وجهَها يتّشح بالحزن . حزنٌ كالذي أشاهدُه عندما تتأمل طيوراً راحلة . تكتئِبُ نجاة وتتحسّر ، تغرقُ في شرودٍ ثقيل . لا تُجدي محاولاتي في تخليصِها من خيوطه .. أقتربُ محدِّقاً فيها باستغرابٍ فتشيحُ بوجهها عني وتصير على وشك أنْ تبكي .. لا تتحسري يا نجاة ، كثيراً ما تحذرني أمّي منه ، ودائماً تقول : يا ولدي لا تجعل خيالَك يسرح بعيداً ، ولا تفكّر في أشياءٍ ليس لك قدرة على امتلاكها ، فمن يشغلُ نفسَه في ذلك يجن . وعطوي ما جنَّ إلا ّلأنه كذلك (شاهدناه مرةً ومرات يحدّق طويلاً في الفراغ . وشاهدناه يكلّم العصافيرَ ويتابع الطيورَ الراحلة في السماء ، يأكلُ مع القطط وينامُ مع الكلاب .. وكنا إذا أردنا إخراجه من شرودِه همسنا بصوتٍ خافتٍ : زهره .. زهـ..رة فينتفض ، يحدِّق فينا ويطيلُ النظر إلينا ثم ينفجر بضحكاتٍ طفولية متتالية ، يغرقُ في ضحكةٍ حتى تمتلئ عيناه بالدموع وينقلب فجأةً وينتحب ، ثم يجهشُ في بكاءٍ مرير يسحق الروح ويكوي القلب ، فيهشّم فينا رغبتَنا بالتندّر عليه . نقترب منه بيدَ انّه يهرب .. يهرب) أخافُ عليكِ يا نجاة ، لا تشردي بعيداً في أفكارِكِ .. تتطلّع نجاة في وجهي وأسمعُها تتمتم : أنتَ ما زلتَ صغيراً .. تظلُّ ذلك النهار تعيسةً ، ضجرةً ترفضُ الذهاب إلى النهر ، ولا ترغب في الجلوس عند النخلةِ المنتصبة حيث اعتدنا تناول رغيفاً نجلبهُ معنا و "خبّازاً " أجمعهُ من حافاتِ السواقي .. أتعقّب أغنامَها المبتعدة وأجمعُها مع أغنامي . أسألها : لِمَ كل هذا الحزن يا نجاة ؟ لِمَ أنتِ هكذا ؟ انهضي لنذهب إلى الروف ننصب شباكنا لاصطيادِ الزرازير ، فجدَّتُكِ ستبتهج كثيراً لها . ستكافئنا بالتمرِ المُداف بالسمن .. هي تحبُّ أكلَ الزرازير ، تقضمُ عظامَها بعد تحميصِها وتطالبُنا بالمزيد .. وفي كلِّ مرةٍ تقول لي : يا جدَّة ، عافاك اللّه لقد خففَّتَ آلامَ مفاصلي . اجلب لي المزيد ؛ وإنْ جلبت لي عظام الهداهد ستكون مكافأتُكَ أكبر .. لماذا عظام الهداهد يا نجاة ؟! سنجلبُ لها الأرانب .. هيّا دعينا نلاحقُها ونُخرِجُها من جحورِها . سيكون سرورُ جدتكِ أكبر .. ستتَّمتَّع كثيراً في سلخِ جلودها ودبغِها . هي ما زالت بحاجةٍ لعملِ أفرشةٍ إضافيةٍ لها .. هي قالت : أريدُ عملَ وسائدَ من جلودِ هذه الأرانب السمر . سأحشوها بريشِ زرازيرِكم الشهية .. وبالأمس طلبت منّي أنْ أجمع لها أغلفةَ القواقعِ من بين الرمال الساخنة .. لماذا تبدو هذه الجدّة غريبة الأطوار (إليها يأتي الكثيرُ من النساءِ تقرأ سعدَهن وتصنعُ لهنَّ دواءً لأمراضٍ كاذبةٍ ، تتلفّظ إزاءهنَّ بألفاظٍ مبهمة تثيرُ في نفوسهن الرعبَ ، وحينما تشاهدنا نتلصصُّ عليها من ثغراتِ جدار البيت المعمول من سعفِ النخيل تتوقف ترمقُنا بنظراتٍ مخيفةٍ فنهرب .. لا تودُّ اقترابَنا . تظنُّنا نُفسد أفعالَها . أبسبب هذا تبُعدكِ عنها وتُلهيكِ برعي الشياه ؟ .. كلا .. كلا . تردُ نجاة : جدَّتي دائماً تقول : رحمَ اللّهُ أمَّكِ ، لو كانت حيَّةً لساعدتني في عملي ، ولكن لا بأس ، عندما تكبرين ستجلسين إلى جانبي وتتركين شؤونَ البيت لأختكِ الصغرى .. ينتابني الفزُع ،

وتتمثّلُ صورةُ نجاة أمامي بملامحَ مقيتةٍ . يأخذُ وجهُها شكلَ الساحرات المسنّات : غضونٌ نافرةٌ وندبٌ متناثرة ، وضحكاتٌ متقطِّعة تقطرُ دهاءً ومكراً ، ويدان متشنِّجتان بأصابعَ طويلةٍ صبغَتها مساحيقُ السحرِ بألوانِها المتنافرة ، فأنتفضُ صائحاً :

نجاة : ستفقدين جمالَ الفتياتِ ورقَّتهن .

نجاة : إيّاك أنْ تتعلَّمي هذا الفعل البغيض .

نجاة : ستصاحبين الجنَّ ويمسخُكِ اللّه .

نجاة : سيكرُهك الآخرون وينسلخوا عنكِ .

لا . لا ، نجاة هذه جدّة مخيفة ، لا تفعل الخيرَ للآخرين . ألم تقُل هي التي زرعت في رأسِ عطوي مَلكاً من ملوكِ الجن .. ألم تقل ذلك ؟.. (جاءتها أمُّ زهرة ، وبحذرٍ أفشت لها : عطوي يتابع ابنتي ويخطرُ كثيراً من أمامِ البيت ، يتابعُها إنْ خرجت للزرع ، ولو عرف أبوها بحبِّها له وحبّه لها سيقتلهما .. كلُّ شيءٍ إلا العار ، أنتِ العارفة ، العالمة ، افعلي شيئاً .. ذلك اليوم استحضرت جدّةُ نجاة سائلاً استخلصته من خلطِ سوائلَ لها روائحُ مقززّة ملأت منها قنينة وضعوا محتوياتِها في شرابٍ تناوله عطوي .. أيام فقط بعدها طفقَ المسكينُ يشكو حرقةً في جوفِه ، ووشيشاً في رأسِهِ فيما راح عقلُه يتبخر فيقلُّ نُطقهُ ، ويزدادُ شروده) .. لا .. لا ، نجاة أخافُ عليكِ . لو فعلتِ مثل ذلك لأحدٍ ستتصبحين شريرةً .. تضحكُ نجاة . وكما لو ومضت فكرةٌ في رأسِها واستقرت راحت تُتمتم : جدتي تستطيع فعلّ أيِّ شيء ، ويوم أريدُها في حاجةٍ سأجعلُها تحضرها لي .. قالت ذلك واستدارت تنظرُ إلى الدربِ النازل صوب المدينة ، وإلى مكانٍ توقُّف كريم .. ها نجاة ما بكِ ؟!

منذ ذلك اليوم تغيَّر حالُها .. لم تعُد سمحةً ، طيِّعةً ، رائقة . صارت تزداد شروداً ، وتتابع طيوراً تمرُّ في سماءِ قريتنا ترافقها بعينين متصالبتين حتى يغيّبها الأفقُ البعيد .. لقد عادت نجاة تحلُم بالطيورِ الراحلة ، والمدنِ النائية .. وعندما تعود بأغنامِها وقتَ تعامدِ الشمس وسخونتِها فوق رؤوسنا ونقطعُ أرضاً صعدت فيها سيقان الحنطة وتدلَّت سنابلُها الخضرُ أقطعُ سنبلتين . أمسكُ واحدةً فيما أعطيها الثانية . أروح أقضم حبيباتِها وأمتص حليبَها بينما تظلُّ نجاة تمسك سنبلتَها ، تضرب بها باطن كفِّها بعصبيةٍ واضطراب . اهدئي يا نجاة ، لا تقلقي كثيراً . سأتزوجُكِ عندما أكبر وسأبني لكِ غرفةً ، واشتري لكِ جهازاً من سوق المدينة . لن أدعكِ تجنّين ... تنحرفُ بأغنامها باتجاهِ بيتها .. تودِّعُني بابتسامةٍ باهتة من وجهٍ شاحب .. أبتسمُ لها وأرجوها أنْ لا تتأخر في الغد .

نذهب في اليوم التالي إلى حيثُ الشريطِ العشبي ، وتذهب عيونُها تتابع جادَّة الروف ، والنسوةَ النازلات إلى المدينة ، والسياراتِ القادمةَ المخترقة قريتِنا نحو قرىً بعيدة ، تتابع كريماً وهو ينتظر الباص النازل . ومثل كلِّ مرَّةٍ يصعدُ إلى الباص ويذهب دونَ النظر إليها فتغرقُ في صمتٍ ثقيل . أقول : آه من تصرفاتِك يا نجاة .. ماذا سيقول لو شاهدك غيري .. ترمقُني بغضبٍ فأصمت ، ومع صمتي يتفاقمُ الحزنُ في عينيها ، ويروح وجهُها

يصفرُّ ... قضت في ذلك أياماً حتى قدِم ذلك الصباح الربيعي الذي فوجِئتُ بها تُصبِّحني بابتسامةٍ نضرة ، وتطالعني بوجهٍ ألقٍ وقد ارتدت ثوباً جديداً فصحتُ بها : أنتِ جميلةٌ بهذا الثوب الأزرق ، وجميلةٌ بورودهِ الصفراء اللامعة .. وجهك يا نجاة يتورَّد .. ياه ، أنتِ تغيرتِ حقّاً .

صارت نجاة تُكثِر من حركتِها واهتزازِ جسدِها .. وصارت تُسمِعُني كلماتٍ لا يقولُها إلا الكبار .. وأنا في خضم ذهول وحيرة واندهاش أتساءل عن سرٍّ هذا التحوّل المفاجئ.. وفي حيرةٍ أشد هويتُ حينما ألفيتُها تبتعد عنّي وتقلل من مجيئها معي .. شرعت تقود أغنامَها إلى أرض خضراء تجاور بستاناً يحاذي الروف البعيد ، وعندما أقتربُ تحاول تجنبي والهربَ مني ، لماذا ؟ . لماذا ؟. آه ، ربما تكون جدَّتُها فعلت أمراً جعلها تبتعد .. ذلك سيقودُها إلى الجنون بالتأكيد .. لو حدث ذلك سأخنقُ هذه الجدّة القبيحة .. سأحرقُ فراشَها ، ووسائدَها التي تشبه جثث أرانب متوحشة .. أنا لا أرغب اللعب إلا مع نجاة .. مع مَن سأذهبُ إلى النهر ، ومعَ من سألاحقُ البجعات ، وأطاردُ الأرانب وأصطادُ الزرازير ؟ .. آه ، لقد باتت نجاة تبتعد أكثر .. تصاحبُ الفتيات اللاتي يكبرنها .. تشاركهن في جمعِ الحطب ، وتساعدُهن في الحصاد ... ويوم شاهدتُها مع بعضهن تحمل قشّاً من حنطةٍ محصودة على رأسِها باتجاه القرية عزمتُ على اللِّحاقِ بها وإيقافِها ثم السؤال عن سرِّ ابتعادها ،، شاهدُتها تتخلَّف عن صاحباتِها قريباً من البستان وترمي كومةَ القشّ من على رأسِها .. وعبرَ ثغرةٍ في سياجِ البستان وبالتفاتةٍ حذرةٍ يميناً وشمالاً شاهدتها تدخل .. أسرعتُ إثرها . دفعتُ رأسي من ذات الثغرةِ وتطلَّعت . وإذ لم أرَها دخلتُ متخفّياً خلف سيقان النخيل .. يصلُ مسمعي صوتٌ هامس صَعُبَ عليَّ تفسيره . بوغِتُّ بعدها بنجاة تقف بارتباكٍ صارخ وقد أحمرَّ وجهُها وارتعشت يداها وهي تتطلع بعينين قلقتين كأنها بانتظار أحد .. كنتُ على وشكِ أنْ أنده باسمِها عندما قَدِمَ من عمقِ البستان شخصٌ لم أميّزه في البدء ، حتى إذا اقتربَ ووقفَ إزاءها تبيَّنتهُ بوضوح . آ .. إنّه كريم بلباسِهِ المدني وشعرِهِ المصفف . سمعتُه يسألُها بقلقٍ ، ونفاذِ صبر : ماذا تريدين منّي يا نجاة ، ماذا تريدين ؟!.. كانت نجاة تحاول أنْ تتفوَّه بكلام لكنّها لم تقدِر على ما يبدو .. فقد خذلتها عيناها اللتان تصببّتا دمعاً .. كدتُ أصرخ بها ، ثم أرتمي عليه أُشبعه ضرباً ، بيد أنّي تمالكتُ نفسي كبرياءً بينما فمٌ في داخلي انفجرَ يصيح : لماذا تذلّين نفسَكِ هكذا يا نجاة ؟.. لماذا ؟.. لماذا ؟

مايس / مايو 1988

السماوة